مولود فرعون

# نجل الفقير




Seuil دار سراس للنشر




الطبعة الرابعة

## صدر في نفس السلسلة :

**محا المعتوه محا الحكيم** الطاهر بن جلون
**التطليق** رشيد بوجدرة
**الحضارة، أمّاه !...** إدريس الشرايبي
**نجمة** كاتب ياسين
**صلاة الغائب** الطاهر بن جلون
**البحار والأسطرلاب** محمد عزيزة
**بوابات الماضي** ادريس الشرايبي

مولود فرعون




ترجمة

محمد عجينة

دار سراس للنشر Seuil

نشر هذا الكتاب في طبعته الأصلية بعنوان
Le fils du pauvre عن دار Le Seuil


6، نهج عبد الرحمان عزام تونس 1002
27, Rue Jacob - Paris VI[e]
ISBN 9973 - 19 - 002 - 5

# الأسـرة

سوف نعمل لغيرنا حتى نبلغ الشيخوخة . وعندما تحين ساعتنا سنموت دون جلبة ، وسنقول في العالم الآخر إننا تألمنا وبكينا ، وعشنا سنوات من المرارة طويلة ، وسيشملنا الله برحمته ...

أنطون تشيخوف

يعيش منراد ، المعلم المتواضع اصيل بلاد القبايل « بين العميان » لكنه لا يريد أن يعُدّ نفسه سيّد القوم . فهو بادىء ذي بدء من انصار الديمقراطية ؛ ثم هو مقتنع راسخ الاقتناع بأنه ليس بالعبقريّ .

وقد اقتضى منه الوصول الى مثل هذا الرأي الفاجع عن نفسه سنوات عديدة . وليس ذلك بمنقص من فضله . بل بالعكس .

منذ شهوره الأولى في مزاولة التعليم ، على إثر فراغه من التحصيل ، استودع كراس مذكراته ـــ لأن له كراس مذكرات ـــ ما يلي : « عندما انكفِىءُ الى نفسي ، وأمعن النظر في وضعيتي و قيمتي ، استنتج في مرارة انّي مغبون وأن قِصَر ذات اليد عقبة ويالها من عقبة ! على أن استنتاجي لا يقف عند هذا الحد ! فبما اني اشعر ان لي

ذكاء حيّا وقادا وأنا بين الكتب العتيقة والكراسات العتيقة ، فلا شيء يدل على أنّي لن ابلغ شأوا بعيدا ».
« قد قضي الامر وقرّ القرار ، والنجاح اكيد . فبقدر ما أمعن في الاستمتاع بدراسة أولية عامة عن «رنصار» (1) وشعراء «الكوكبة»، (2) يصح العزم مني ، ويصبح الامتحان الذي سأخوضه اقرب منالا . »

كان منراد طموحا . وكان يسخر من طموحه . لقد كانَ المسكين يدرك انه ان افرط في طلبه ورام ان يحلّق تحليق النسور ، فلن يفضي به ذلك الا الى مزيد من التمرغ في الوحل تمرّغ البطّ .

وإذن فقد قبل عن مضض أن يكون معلما بسيطا في قرية كالتي شهدت مولده ، في مدرسة بها قاعة واحدة ، بين كافة الفلاحين ، إخوته ، متحملا معهم صروف الدهر والنفس منه راضية مطمئنة ، مترقبا مثلهم في جبرية ولا مبالاة ويقين مطلق ــ على حد قوله ــ ذلك اليوم الذي سيدخل فيه جنّة محمّد .

وليس هذا الموقف الذي يستحق الحمد والثناء من جميع الوجوه موقف شكوكيّ . فمنراد المسكين عاجز عن

---

1) شاعر فرنسي (1524 ــ 1585) من ابرز رواد الحقبة الكلاسيكية.

2) جماعة من سبعة شعراء عاشوا في عهدي هنري الثاني وهنري الثالث في عصر النهضة الفرنسية . وكان من مطامحهم اثراء اللغة الفرنسية ومحاكاة اليونان والرومان . (المعرّب) .

التفلسف . انما هو ناتج عن شعور واضح جلي بضعفه . فهو بعد أن زهد في الامتحانات ، رام الكتابة . لقد حسب أنه قادر على الكتابة . أوه ! ولم يكن ذلك شعرا ولا دراسة نفسية ولا حتى قصة من قصص المغامرات ، بما أنه يعوزه الخيال . لكنه قرأ ما كتبه «دودي» (3) و «ديكنز» (4) (مترجما) . كان لا يريد أكثر من أن يحكي ، مثل أولئك الرجال العظماء قصة حياته . كنت أقول لكم إنه كان متواضعا ! حاشاه أن ينصرف به الذهن إلى التشبّه برجال نوابغ . كان لا ينوي أكثر من أن يقتبس منهم تلك « الفكرة الخرقاء » فكرة تقديم صورة عن نفسه . كان يقدّر أنه إن نجح في أن ينجز عملا منسجما مكتملا واضحا مفهوما ، فسيكون راضيا عن نفسه . كان يرى أن قصة حياته جديرة بأن يطلع عليها الناس، على الأقل أبناؤه وأحفاده . وإذا لزم الأمر فليس يحتاج إلى طبعها . سيتركها مخطوطة .

شرع في العمل سنة 1939 ، في شهر أفريل ، خلال عطلة عيد الفصح ونِعْمَ تلك الايام !

وأمام ذلك العدد الذي لا يحصى مَن العقبات التي

---

3) الفونس دودي ، قصاص فرنسي شهير عرف خاصة بـ « رسائل طحونتي » .

4) شارل ديكنز روائي انقليزي مشهور ، هو صاحب دافيد كوبرفيلد . (المعرّب) .

تعترض سبيله عند منعطف كل جملة وعند نهاية كلّ فقرة ، وأمام الكلمات المستعملة في غير موضعها ، والتراكيب التي هي محلّ شك ، والنعوت التي لا يقع عليها الادراك ، عدل عن مشروع لا طاقة له به بعد أن سوّد كراسا مدرسيا ضخما . أسلم أمره بدون نيّة العود ، ودونما غيظ أو حنق .

في القاعة التي يدرّس بها ، مكتب متواضع أسود فاحم . وفي أحد درجيه تقبع اليوم آيته الفنّية المجهضة ، نسيا منسيّا بين كراس تداول وجذاذات اعداد دروس كأنها بيضة الدُّخلة الخامسة يهجرها الطائر وفراخه بازدراء في العشّ وقد غدا عديم الجدوى .

لا أحد سيّد مصيره ، يا أرحم الرّاحمين ! ، وإن كنت قدّرت أن يعرف كافة الناس قصة منراد فورولو فمن سينتهك حرمة قانونك ؟

فلنستخرج من الدرج الأيسر الكراس المدرسي . ولنفتحه . نحن نصغي إليك يا فورولو منراد .

# 1

إن السائح الّذي يجرؤ فيتوغّل في صميم بلاد القبايل ، ليتملّى سواء عن اقتناع او عن شعور بالواجب في معالم يجدها بديعة الحسن ، وفي مناظر طبيعية تبدو له ذات شاعرية فياضة فاذا هو يحس دوما بضرب من التعاطف والتسامح إزاء السكان واخلاقهم .

ولنا أن نصدّقه دونما صعوبة ما دام يجد ، أنّى حلّ ، نفس العجائب ونفس الشاعرية ، وما دام يحس كلّ مرّة بنفس التعاطف . ليس ثمة أي داع كي يرى المرء في بلاد القبايل ما. يراه أيضا في كل مكان أو يكاد .

ألف معذرة سادتي السواح ، فأنتم إنما تكتشفون تلك العجائب وتلك الشاعرية لأنكم تمرّون بنا سائحين . وينتهي حلمكم حال عودتكم إلى بلدانكم . هنالك ينتظركم الابتذال عند العتبة .

أما نحن القبايليون فنفهم أن يُثني الواحد على بلادنا بل ونحب أن يخفي عنا خشونته من وراء نعوت تنطوي على الخداع والتملق ومع ذلك ندرك جيّد الادراك ذلك الاحساس التافه الذي يتركه منظر قرانا البائسة على أكثر

الزوّار ميلا الى المجاملة .

تيزي تجمّع سكني يعدّ ألفي نسمة . ومنازلها يتعلق بعضها ببعض ، الواحد تلو الآخر ، على قمة منحدر صخري ، كأنها فقارات ضخمة لبعض وحوش ما قبل التاريخ . فطولها مائتا متر ، ولها شارع رئيسي لا يعدو أن يكون قسما من مسلك تعبره القبايل ويربط بين عديد من القرى ويفضي الى الطريق السالكة وبالتالي الى المدن .

ولقد احتفظ ذلك الشارع الرئيسي بعرضه الاصلي في الاماكن التي لم يسيّج فيها إلّا من جانب واحد فكان ستّة أذرع على الاقل . ولما كانوا في اغلب الاحيان قد بنوْا على الجانبين ، آجتُذمت أطرافه فهو في حالة يرثى لها في سجنه الصخرّي . ولعله كان سيختنق لو لم تتفرع منه بين المسافة والمسافة ، مرة ذات اليمين ومرة ذات الشمال، شُعَبٌ لعوب وأزقّة محصورة الجانبين تترامى هاربة نحو الحقول .

كيف يمكن منطقيا أن نطالب بأن يعامَل شارع ، هو قسم من مسلك ، معاملة اخرى غير معاملة ذاك المسلك ؟ ولماذا ينبغي تبليطه إن كان ذلك المسلك غير مبلّط . فكلاهما اغبر صيفا ، والشارع اكثر وحلا في فصل الشتاء لأن ارتيادهم له أكثر . وللسبب ذاته تراه ايضا على الدوام اكثر منه قذارة . ذلك هو الفارق الوحيد . أما الأزقة فهي شبيهة به لأنها تتفرع عنه .

لنتصور الان في موضع ما ، زقاقين متقابلين ينطلقان من نقطة واحدة . أحدهما ينطلق نحو اليمين والآخر نحو الشمال . في ذلك الموضع الممتاز ، النهج عريض . أوَ ذلك بمحض صدفة غريبة أم بقرار لم نعد ندرك في الوقت الراهن ، المناسبة التي قد تكون دعت اليه ؟ .

لم يشيّد أجدادنا شيئا عند زوايا المفرق الاربع . وها انتم في ساحة القرية

الكبرى « ساحة الموسيقيين » ، أو كما نسميها «الجْماعة». وهي فريدة ، والحيّ العلويّ يحسد عليها الحيّ السُّفلي . وتقوم بلاطات عريضة من حجر النضيد على خمسين سنتيمترا من البناء غير المحكم ، لصق واجهات المنازل فتشكّل مقاعد «التادجمايت» التي يجلس اليها الرجال والاطفال . وقد انعم الحظّ على احد تلك المقاعد بسقف فيه فتحة . إنه منشود اكثر من سواه بسبب برودته في فصل الصيف ولأنه يقي في فصل الشتاء . وعندما يفضي المرء الى «الجْماعة» في الشّمال ، فان ذلك المقعد يكون على يساره ، مقابلا بالضبط لزقاق مسدود ، تقطعه على مسافة حوالي عشرين مترا بوّابة مسكن من المساكن . ان ذلك المقعد محلّى بأبهى بلاطة . هي بلاطة من المرمر الحقيقي الاصهب اللماع صقلها الزمان والاستعمال .

وللقرية ثلاثة أحياء وبالتالي ثلاث «جْماعات» ولكل «جْماعة» مقاعدها الحجرية وبلاطاتها اللماعة. فأنت واجد في كل مكان نفس رقاع الضامة الثابتة محفورة في البلاطات حيث يلعبون بالحصى لكن لا أحد يمكنه أن يزعم ، أن سائر «الجْماعات» تعدل «ساحة الموسيقيين» .

وثمة ايضا - مسجدان . ومن الواضح الجلي أن المسجدين دون «الجْماعات» أهمّية . فإذا نظرت إليهما من الخارج وجدت أنهما يشبهان سائر المنازل المجاورة . أما من الداخل فالارض مفروشة بالاسمنت ، والجدران مطلية بالجير . إنها خالية موحشة من فرط بساطتها . أما الشيوخ الذين يؤمّونها للصلاة فكأنهم ينتمون الى قرن من القرون الخالية .

ويقع المقهى العربي خارج القرية . وينبغي لمن يهمهم الامر ان يتكلفوا الذهاب اليه والخروج من التجمع .

إن بعض البنايات الزاهية الفخمة قد شيدت مؤخرا بفضل المال الوارد من فرنسا . ان تلكم المنازل تنتصب بواجهاتها الفاحشة ، وقرميدها ذي

اللون الاحمر القاني بين البلى الشامل، ولكن المرء يحس بأن ذلك البذخ ناب في مثل ذلك الاطار . على اننا لسنا فخورين جدا بها . فإذا نظرت اليها من بعيد بدت لك في شكل بقع بيضاء تتنافر والاطار العام بلونه الأغبر تنافرا . فنحن نعلم أنها من الداخل تشبه سائر المنازل وانها تستحق ذلك المثل السائر الدال على الاحتقار الذي يلصق بها « كإسطبل المنيّل ، يا مْزَيّن من بَرَّه آشْ أحوالك من الدّاخل » .

ان الغرور هو احد العيوب التي نسخر منها أكثر مما نسخر من سواها ، ربما لأننا كلنا إمّا أقارب أو أصهار .

ويبدو ان اجدادنا قد تجمعوا بحكم الضرورة . فلشدّما كابدوا حياة العزلة حتى أصبحوا يقدّرون فضل عيشة الجماعة حقّ قدرها ، ويغتبطون لأن لهم جيرانا يقدمون العون والمساعدة ويقرضون ويغيثون ويشفقون على الواحد أو على الأقل يشاركونه مصيره ! نحن نخشى العزلة خشيتنا الموت . لكن ثمة دوما نزاعات وخصومات عابرة تعقبها مصالحات بمناسبة فرح من الافراح أو ترح من الاتراح . « نحن جيران للجنّة لا للمضايقات » هذا لعمري أعذب امثالنا والذّها جميعا . ليست جنّتنا سوى جنة أرضية ، لكنها ليست جحيما .

ولا يهم إن كان لكل حيّ جده الخاصّ . فقد احتفلنا منذ عهد بعيد بزيجات بين الخراريب بحيث أن تاريخ القرية الان هو تاريخ واحد كأنما هو تاريخ شخص واحد . فلا وجود لطبقات مغلقة ولا لألقاب نبيلة تختص بها أسرة دون أسرة . وما تزال لنا قصائد عديدة تتغنى بأمجاد أبطال مشتركين . أبطال في دهاء «عوليس» وفي إباء «ترتارين» ونحولة «دون كيشوت» (5).

---

5) عوليس بطل الاوديسية لهوميروس . ترتارين دي تارسكون بطل رواية الكاتب الفرنسي الفونس دودي . ودون كيشوت بطل رواية الكاتب الاسباني سرفنتاس . (المعرّب) .

ان الحي السفلي مثلا من سلالة مزوز . كان لمزوز خمسة اطفال ذكور وهبوا اسماءهم الى كلِّ أسرةٍ من أسر الخروبة الخمس . ولذلك تشتمل الخروبة على آيت رباح ، وآيت سليمان ، وآيت موسى ، وآيت العربي ، وآيت قاسي . أما « البشيريين » ، فليس جدهم سوى لاجىء اتى من الجرجرا . وليس البشيريّون فخورين بأصلهم . وهم يستشعرون في قرارة انفسهم ببعض النقص . أما الان فلم يعد احد يفكّر في ذلك . فهم أيضا يعتقدون انهم من سلالة مزوز أصالة . ومع ذلك يحدث في بعض المناسبات الخطيرة ان يُذَكّرَ به بعضُهم بعضا . ولا يكون ذلك الّا متى تعلق الامر بمصلحة ذات اهمية .

وعلاوة على اصلنا الواحد او المشترك فحالنا أيضا واحدة لأن جميع القبايليين الجبليين يعيشون سوية عيشة واحدة . فليس ثمة فقراء ولا اغنياء . صحيح انه يوجد صنفان من الناس : منهم من يتوفر لديهم باستمرار قدر الكفاية ، ومنهم من ينتقلون بحسب السراء والضراء من البؤس المدقع الى اليسر المتواضع الذي يحظى به من حبتهم السماء بنعمها . لكن لا يمكن للمرء أن يصنف الناس أي تصنيف نهائي ولا أن يلاحظ وجود فوارق جوهرية في نمط عيشتهم .

وتملك العائلات الموسرة عدة حقول مغروسة زيتونا وهكتارا من الارض الصالحة للبذر وأحيانا عينا جارية في حقل من حقولها . وعندما كنت تراهم في الجماعة يقدرون أن ما يملكه الفلّاح الفلاني يتطلّب شهرا من الحراثة ، كنت تقرأ الاعجاب والحسد في العيون . لكن يوما من الحراثة في أراضينا الوعرة بزوج من الثيران أكبر بقليل من خروفين ، لا يكاد يمثل عشرين آرا . وإذن فالملاك القبايلي الكبير يملك ستة هكتارات ، ويتكلم في الجماعة بصوت قوي ، وهو السيد المطلق في بيته او على الاقل يوهمونه

بذلك .

وتراه ، حفاظا على سلطته واعجاب الناس به، يسعى ويكدّ اكثر من المعدم الذي لا يملك قِطْميراً ، فيعمل مع عمّاله حتى يكون لهم مثلا يحتذى ، ويأكل مثلهم ويلبس مثلهم . لكنه ، شأن صيرفي الحكاية ، لا يشاطرهم همومهم ومشاغلهم .

وهو يملك ماشية : فله زوج من الثيران وبقرة وشويهات وبغلة او حمار .

وقد يتكون مسكنه من غرفتين متقابلتين (عرض الواحدة اثنا عشر ذراعا وطولها اربعة عشر) ، ومن غرفة صغيرة أو غرفتين للابن البكر او لعابر السبيل . وجميع البناءات مشيدة من اطباق من النضيد يُشدّ بعضها الى بعض بملاط من الطين . أما السقف فهو من القرميد الاجوف القائم على فراش من القصب . أما الارضية ، وقد أحسنوا دكّها ، فمغطاة بطبقة من الكلس الصقيل اللّماع الضارب الى الصفرة يترك لديك انطباعا بالنظافة والاناقة الريفية ، على الاقل عندما تكون الطبقة جديدة . وتُطيِّنُ ربات البيوت ذوات الذوق المرهف بالطريقة نفسها اركان الحيطان من كل غرفة مقدار متر ، ويحدّدنها بحاشية خضراء غير مستقيمة يحصلن عليها بمسحوق الأفانية . أما أعلى الحيطان ، حتى السقف، فيُطلى بنوع من الطين الضارب الى البياض لا يحصل عليه الا بعد جهد جهيد . ان ترتيب المنازل من الداخل ، لهو من مشمولات ربات الاسر ، وهو مصدر قلقهن وعنوان فخارهن . وبحسب يسر العائلة ، يجدد دوريّا كل سنة أو سنتين او ثلاث سنوات .

وتشتمل كل من الغرفتين الكبيرتين على قسم سفلي مبلّط يستعمل زريبة ومربطا ومحطبة . وتفصله عن القسم العلوي ركائز قصيرة تحتمل بيت

المؤونة . ويشتمل بيت المؤونة على إيكوفان (6) المؤونة ، وجرار الزيت وصناديق الأسرة . ويكون القسم العلويُّ المسكنَ. وخلال النهار تتأرجح عُدّة السرير على طول عمود كبير معلق إلى دعائم السقف . ويقبع الكانون في مكان ما قرب الحائط المواجه للزريبة . وفوق الموقد عمودان متوازيان يصلان بين الحائطين الاخرين ويحتمل ذانِك العمودان شتى الأغراض . ففي فصل الشتاء يحتملان غرابيل مملوءة من ثمر البلّوط الذي سيمكّن وهج الدخان المتصاعد من الكانون من حفظه ، ومن الحطب الغض الذي سيمكنه ان يجف في كنف الهدوء على بعد مترين من النار تحته، ومن قديد خروف العيد الذي ستصبح لشحمه حرافة الزنكة المدخنة وحدّة طعمها.

ولا تحوي الغرف الصغيرة شيئا من كل ذلك . فهي في بساطة المستطيل من دون أن يكون له استقامته . وطبقة ملاط جدرانها أكثر لمعانا من ملاط الغرف الكبرى ، لأنها أقلّ عرضة منها للدخان . فلا توقد فيها النار الا في امسيات الشتاء الباردة .

أما الساحة فهي ضيقة عادةً . وأحيانا ينتصب فوق بوابة المدخل ما يشبه بيت الحمام يبلغه الواحد من الساحة بواسطة مدرج متواضع أو سلّم غليظ . تلك غرفة اضافية . وتحت ذلك وعلى جانبي البوّابة تراهم بنوا مقعدين عريضين تطليهما ربة الاسرة بطلاء من الجير في سنوات الرخاء .

ها قد احصينا اذن علامات الثراء الخارجية احصاء دقيقا . وليس ثمة غيرها . ولا ترف فيها البتة لأن كافة الناس يعلمون ان الرجل الغني

---

6) مفردها اكوفي : أي جرّة كبيرة من الطين غير المشوي تخلط بالهشيم وتوضع فيها الحبوب او مجفف التين (تعليق في الاصل الفرنسي) .

شحيح . هو شحيح حتى يصون ماله صيانة الحريص عليه ، وحتى ينمّيه اذا لزم الحال وذلك لان البخل خصلة اساسية كي يصبح المرء غنيا وكي يظلّه . ولا احد يحقد على البخلاء . فهم بوجه من الوجوه محلّ اعجاب وتقدير .

وتعيش الاسر الفقيرة في قريتنا عيشة الاثرياء متى امكنها ذلك ، وإلّا انتظرت . وليس للفقير من اراض يمتلكها او له منها نصيب ضئيل جدا : هو ما يشغله عندما يكون متعطّلا . ولا يعدو مسكنه حجرة واحدة . ويقتسم الساحةَ الصغيرة مع جيران في مثل فقره ، والجماعةَ مع سائر الناس . وقلما كان الفلاح يقضي اوقات الاستراحة في كوخه بين النساء وجحافل الاطفال . فالجماعة ملجأ أمين ومتوفر دوما ومجان . أما المقهى العربي فلا يستهوي الا الشباب والكسالى .

وقد يملك الفقير بعض الدواب مثل الغني . دوابّ لم يشترها لكن عهد بها اليه بعضهم . على انه ، عندما يبيعها ، يستخلص لنفسه نصيبا من الربح . ويمكنه ان يعمل مُيَاوِمًا ، يعمل كي يعيش عيشة افضل . وانه ليودّ ان يحاكي جاره الغني ، بينما ترى جاره ينشد محاكاته هو . وعما قريب سيدب بينهما الخلاف . فكثيرا ما تغبط زوج الغني جارتها الفقيرة على حليها وابناؤها حظّ رفقائهم البؤساء . ولا يدوم ذلك الا قليلا . يكفي ان يحلّ شتاء ممطر او أن يلّم بهم مرض أو أن تطرأ نفقة غير متوقعة او أن يسافر ربّ الاسرة الى فرنسا فاذا نكد طالعه او لا مبالاته تعدّل الكفة وترجع الامور الى نصابها . ويظل الغني دوما بخيلا . أما الفقير فهو يزدري شقاوة الغني تارة ويحسده عليها تارة اخرى .

وحاصل الامر ان الناس في تيزي ، يعرف بعضهم بعضا ويحب بعضهم بعضا أو يغار بعضهم من بعض . كل يدبّر شؤونه بقدر

المستطاع ، ولكن لا وجود بينهم لطبقات مغلقة . ثم كم من فقير جمع مالا وعدّده فأصبح غنيّا ؟ وكم من غنيّ افتقر فجأة قبل أن يتسبب في افلاسه سعيد المرابي ، ذالك الذي يحترمه كل الناس ويخشونه ويكرهونه . سيأتي دوره بكل تأكيد ، وسيموت وهو يسأل الناس . ليس للقانون من استثناء . إنه قانون إلَهيّ. مقدّر على كلّ منّا في هذه الحياة الدنيا أن يعرف الشقاوة والنعيم وأن لا ينتهي البتة مثلما بدأ . هذا ما يؤكده شيوخنا وهم يعلمون من ذلك ما يعلمون .

# 2

كان منزل اهلي في اقصى شمال القرية ، في الحيّ السفلي . ونحن من قروبة آيت مزوز من اسرة آيت موسى . ومنراد لقبنا .

ويُدعى عمّي شعبان ، وابي لونيس ، ولكنهم في الحي تعودوا ان يدعوهما « أولاد شعبان » ولست أدري البتة لماذا . لقد تيتما في سنّ مبكّر جدا ، حتى ان ابي لم يعرف جدّي قط . كان ينبغي تسميتهما ولدي تسّاديت ، جدتي ، ولا شك ان أعمامهما أو أبناء أعمامهما كانوا يفضلون تخليد ذكر شعبان حتى يظهروا للناس بما لا يدع مجالا للشك ان اليتيمين وريثا رجل هو من هو ، وانهما معا يعوّضان الفقيد واقعا وقانونا . وكان هذا الرأي محمودا في البداية . ولكن مع مرّ الايام ، اصبح الاطفال رجالا . كان هذا الاسم الجامع المشترك ينال منهما قليلا لأن الناس ما تحدثوا عنهما قط الّا وكأنهما شخص واحد . والحال ان ليس بينهما كبيرُ شبهٍ .

. فعمّي لونيس ملامحه رقيقة ، ونظرته ساخرة ، وبشرته بيضاء نقية . وهو موسوس ونظيف . ما أزال اذكره وقد لبس جبة بيضاء وعمامة لفها لفا

محكما . وقلما اتصوره وبيده فاس وقد شد خصره بذلك الحزام العريض المرصع بمسامير صفراء لمّاعة . وقد يصادفه أن يفعل . فتراه يعالج الفأس في غير مهارة ، فيتخاذل ويلفط عمله . صحيح ان حاله افضل وهو في الجْماعة . فالناس يعلمون انه صريح عصبي المزاج. وكلامه يتوقد حيوية . وحقده كنار الهشيم . كان من أكثر شبان القرية أناقة . ولهذا احتل من قلب امه منزلة مرموقة . وعلاوة على ذلك فقد كان الابن البكر . وكان يحلو لجدتي ان تردد انه ساعدها على تربية رمضان طفلا . والحق ان المسكينة لم تستطع الاعتماد عليه قط . كان من الواضح الجليّ انها كانت تميل الى لونس . فقد أورثته خلقة حسنة . وكان ذلك أول هدية منها اليه . وكررت صورتها في صورة ابنها البكر . فلهما نفس الابتسامة ، ونفس الوجه البيضوي ، ونفس النبرات الصوتيّة .

أما رمضان فيشبه شعبان كل الشبه ؛ لعل الصدفة ارادت ان تسليه بعض السلوى فجعلت في متناوله وسيلة سهلة يتخيل بها اباه . ان رمضان اسمر واكثر صلابة واشد قصرا من اخته ، هو مثال الفلاح القبايلي الاعجر القوي العضلات . اما الوجه منه فقد كان جدتي تردد انه شعبان نفسه بجبينه المربع وأنفه الصغير الاخنس وشفتيه الرقيقتين ، ووجنتيه العريضتين . وله ايضا نظرة ابيه ونفس العزّة فتراه اذا نظر اليك غمز بعينه اليسرى . واغلب الظن ان جدتي حاولت ان تجعله يقلع عن تلك العادة المشينة وكذلك عن مشيته مشية المثقل كأنه الدّب ، ورجلاه مفحّجتان . وهي هيئة تجعله ، عند كل خطوة يخطوها ، كمن يجابه عدوّا أو يحمل حملا ثقيلا . وقد عدته جدّتي دوما قَدْماً ثقيلا قليل المتطلبات . وهو ليس مهذارا كأخيه ولكنه خجول الى حدّ يقارب سوء الأدب . ومنطوٍ على نفسه ويبدو ان ثقل ذهنه في مثل حركاته . كان يبدو وكأنه مرْصود

الاشغال الفلاحية . وقد ارتضى دوره ذلك راضيا مطمئنًا . ولم تكن اصابعه الغليظة تمنعه من ان يجيد العزف على الناي . ولكن اترابه من الشبان وحدهم هم الذين كانوا يعلمون ذلك ، كان يحبّ امه واخاه حبّا جمّا ولكنه كان عواطفه في أعماق قلبه كما لو كانت ضعفا . وكانت له طريقته المجازية الخاصة في السخرية من الناس والاشياء في غير خبث . الواقع انه كان من الذين يسخرون فلا تبدو عليهم ايّة امارة ، فضلا عن كونه فيلسوفا وشاعرا . ان عديدا من ملحه وطرائفه ما تزال تتردد على الالسنة في القرية . وعلى وجه العموم يحبّه الناس قدر حبهم لأخيه لأنه متواضع أمين.

عندما جئت الى هذا الكون كان عمي قد قارب الخمسين وأبي الأربعين ، وكان لكليهما زوجة وذرّية .

زوجة عمي حليمة أصلها من الحيّ العلوي . هي امرأة فارعة القدّ ، جافة العود مستقيمته لها عينان برّاقتان ، وصوت غليظ ، ويد صَنَاع وهيئة رشيقة . وقد فرضت نفسها على تسّاديت العجوز منذ أول وهلة . ولم تلبث أن افزعتها . وتعوّد عمي تأديبها ضربا دون أن يتوصّل البتة الى جعلها تخشاه . كان أبي عدوّها اللّدود لأنه كان يفسد عليها جميع حيلها ونحن نعرف أنها قد اصابتها لعنة جدتي ونتجرع مرارتها صابرين .

على ان العجوز هي التي اختارتها . كان ابو حليمة ، وهو صديق قديم من اصدقاء جدي ، قد عمل حارسا اثناء حملة مدغشقر ثم رجع منها ومعه بعض المال . وحسبته جدتي ثريا جدّا وحسبت أنها قد وجدت فيه سندا لاطفالها . ولم تغتفر لنفسها تلك الزلة قطّ . فما لبث الجندي ان توفي مطمئنا على مصير ابنته دون ان يخلّف لها شيئا سوى وسام مذهّب معه شريط حريري اخضر ، انتهى به المَطاف بين يديّ بعد ذلك بمدة طويلة .

أما أمي فهي من آيت موسى ، وهي اذن من بنات عمومة آل منراد . وقد اتخذتها جدتي كنة بعد ان فكرت وقدرت . فجدّي من أمي ، واسمه احمد ، قد اوصى لبناته الثلاث ، قبل ان تحضره الوفاة ، بمنزل صغير وحقل . وترك وثيقة بخط يد أحد القضاة . وهي موجودة الى يوم الناس هذا ، وقد اسودّت قليلا الا انها ما تزال متينة ، مطوية على أربع ، ملفوفة في خرقة ، مدسوسة في اناء من طين مغطّى بسدّادة من الفلّين . كانت هبة «مبرمة لا رجعة فيها». أمي تذكر ذلكَ جيّدا . ولكن عندما وصلت الوثيقة فسّر الشيخ الذي ترجمها للوارثات أن ليس لهنّ الا حق الانتفاع . لا شك ان القاضي لم يدرك رغبات الميت قبل أن يموت كما ينبغي إدراكها فسجّل رغبات الاخوة . ولم يكن لذلك كبيرُ أهمية لأن امي وخالتي لم يقلقن لفعل اعمامهن وقد تقاسموا سائر الحقول . وعندما تموت الأخوات الثلاث يستحوذون على بقية الميراث دون ما مشكلة .

كان أحمد جدي ارمل ؛ ولم يكن يجهل ان بناته لن يكون لهن اي سند. ولكنه لم يجرؤ أن يفرّطِ لهن في ممتلكاته قبل مماته، وربما كانت تلك ، الوسيلة الوحيدة ليمنعهن الفقر . كان يخشى على أملاكه أن تكون غنيمة سهلة بين يدي النساء ، وكان يخشى ان يترك عرضه بعد مماته ينهشه آيت موسى ، من هو حيّ ومن هو في عداد المستقبل . لم يكن يريد ان ينتصب على أراضيه غرباء حتى وان كانوا اصهارا او احفادا . أوه ، نعم كانت الأمور تسوّى في حياته ، لو أن واحدا من أبناء عمومته ، من آيت موسى مثله ، قد بنى بإحدى بناته . لم يبدوا رغبة في ذلك ـــ اللهم الا ابني شعبان ربما ، وبئس النصيب ! ـــ وكثيرا ما نازعته نفسه الى ان يحمل لهم في قلبه حقدا وضغينة . ولكنه رأى في آخر أيامه ان من الحكمة أكثر أن يتخلّى لهم عن اراضيه حتى لا يقطع بناته عن الاسرة الكبرى . دار

بخلده : أنا راحل ، لا أحد سيقول إنني غبنت ذَوِيّ حقهم . ولهم الخيار فإما الشرف وإما العار . وأي والله لقد اختار آيت موسى الشرف . لم يكونوا يرغبون في أن تجلب لهم البنات العار . ففساد طويّة الشيخ لا شك فيها بما أنه حاول أن يفرّط لهن « بدون رجعة » في المنزل وفي حقل من الحقول. كان القاضي متفهّما من حسن الحظ ! أما بالنسبة الى سائر الامور فلم يكونوا في حاجة الى اللّف والدّوران . قالوا للبنات :

ــ عليكن بتدبير اموركن في نَطاق الشرف . ان اقل زلّة منكن قد تدنس اسمنا . ولن يلبث أن تسلط عليكن اشد العقوبات . فانتن في ذمّتنا . فالْزَمْنَ الصراط المستقيم . أمّا ما عدا ذلك فلا شأن لنا به .

كان العُرف يقضي أن القريب اذا ورث قريبا له ان يكفل بناته اليتامى ويزوّجهن ويسهر عليهن . وكان آيت موسى من الكثرة ومن الغيرة والتحاسد فيما بينهم بحيث يتعذر عليهم الخضوع لتلك القاعدة المتعارفة . فكل يريد نصيبه من الميراث . وتعهّدوا جميعا بالعناية باليتامى . ووفوا بذلك العهد بالقدر المتمثل في مراقبة المسكينات مراقبة صارمة .

واذ شعرت الأخوات أنّهن مراقبات تلك المراقبة وأنّهن يعاملن احيانا معاملة فظّة ، شكرن لأعمامهن وابناء أعمامهن صنيعهم لأنهن كن يعتقدن في نفس الوقت انهن محميات . كنّ يفضلن ذلك على اللامبالاة وعلى الاهمال وما يصحبه دوما من الاحتقار . كن فتيات جريئات لهن افكارهن المقررة . كن يقبلن أن يخدعهن اعمامهن ، وأن يسلبوهن ما داموا لا يفردوهن عن المجموعة وما دمن محتفظات بحقهن في اللقب .

كانت جدتي تسّاديت ، من بين جميع الخالات ، اكثرهن باليتيمات عناية ، واكثرهن توجُّها اليهنّ بلطيف القول . كانت تنصحهن في أغلب الاحيان . وما لبثن أن تعوّدن مراجعتها في كل كبيرة وصغيرة . كانت

فاطمة ، بكرتهن ، دون العشرين . ولما لم يكن رمضان قد تزوج ، خامرت جدتي فكرة تزويجهما . لم تكن فاطمة دميمة. كانت قصيرة ، شاحبة بعض الشحوب ، نحيفة . ولها وجه مفرط في الطول ووجنتان بارزتان ولكن لها نظرة مليحة كلها كآبة رقيقة . لم يكن في مشيتها شيء من فظاظة اترابها من الفتيات وخيلائهن . كانت بسيطة ساذجة . وإذا استثنينا الكسكسي لم تكن تعرف إعداد أيّ طعام آخر . ووجدت جدتي كثيرا من العنت حتى جعلتها ترضى برمضان زوجا لها . واستسلمت فاطمة عندما ايقنت أن مظهر الدب الغليظ يخفي من ورائه كثيرا من القوة وكثيرا من التحمس للعمل وقدرا لا بأس به من سداد الرأي . وفكرت انه قد يكون في آن وليّا يكفل اختيها . وتم الزواج على ابسط ما يكون . وكفل الاخوان لونيس ورمضان اليتيمات ، وابتهج بذلك جميع ابناء العم .

واعتقد ان جدتي لم يحصل لها ان تذمرت البتة من امي . فقد عاشت فاطمة في كنفها وكانت عدوة حليمة الخاصة . ووجدت تسّاديت العجوز نفسها في وضعية غريبة . كانت تحب لونيس اكثر من حبها لرمضان ، ولكنها كانت تفضل فاطمة على حليمة . وربما لهذا السبب بالذات امكن للاسرتين أن تعيشا معا زمنا طويلا . وامكن لجدتي ان تسيّر شؤون البيت وان تعدل بينهما نسبيا .

وفعلا ، فمن المعلوم أن الناس في بلدنا مهذبون ، على الاقل في حياتهم العائلية . فنحن مجمعون على انكار التبذير . ولذلك فان كل اسرة تأتمر بأمر مسؤول . ويتصرف ذلك المسؤول في المؤونة فيقسط كما يشاء ويقرر بشأن ما ينبغي استعماله من المدخرات ، وبشأن ما ينبغي بيعه او شراؤه . وتراهم يتهمونه احيانا بأنه يختص بنصيب اوفر ، ولكن ذلك دوما من باب الغيرة والحسد . وقد اقرّ العرف خصال رب الاسرة او ربة الاسرة إقرارا . وإنّ

عددا من الامثال التي لا مجال للطعن فيها توفيهم حقّهم من الفضل .

كانت جدتي ، بين آل منراد ، هي المكلفة بالمعاش . فهي التي كانت دون سواها تفتح الايكوفان وتغلقها . وكانت لها اساليبها الخاصة في معالجة كل ماعون وأسرارها الخاصة في كيفية نزع الغطاء أو ردّه إلى مكانه؛ كانت بعض القرائن الطفيفة حَرِيّة أن تلفت أنتباهها . ولذلك كانت كنّتاها تعرفان حدود الله . كان بيت المؤونة مجالها الخاص . وهي الوحيدة التي كانت تدخله . كانت تتسلق اليه لتأخذ حصة التين او تملأ غربالا من الشعير او لتوزع الزيت والشحم . كانت لها مكاييلها الخاصة ، وحسابها الخاص وذاكرة امينة . ما كان احد يستطيع ان يصادف منها غرّة .

كانت النسوة يعددن وجبات الطعام . ولكن عندما ينضج الكسكسي ، كانت هي التي تضعه في الصحون . اللحم فقط هو الذي كانت تطلب من ابنها البكر أن يوزّعه . فذلك شغل رجال . ولمّا كنّا نشتري منه فقط في المواسم والاعياد ، فالخلاصة أن جدتي هي التي كانت تعوّل الاسرة شبيهة في هذا بوجه من الوجوه ، بدجاجة تزق فراخها .

وهذه لعمري مهمة تتطلّب خصالا عظيمة لأنه من المعلوم ان القبايليين لا يسبحون في بحبوحة من النعيم . ومع ذلك ، فلما كانوا دوما يكلّفون بها اكبر أفراد العائلة سنا او اكثرهم هيبة واحتراما فهم على العموم مطمئنون على الآخرين ، موقنون أنه يقوم دوما بواجبه قيام الحريص الدائم على المصلحة المشتركة .

# 3

ولدت في السنة المباركة 1912 ، قبل قرض تبراري الشهير (7) الذي اهلك عجوزا عند ذرى الجرجرا ومسخها حجارة ، والذي مازال الى الآن يثير هلع الذين بلغوا الثمانين من بين القبايليين .

ولما كنت أول مولود ذكر في اسرتي قمين أن يحيى، صممت جدتي دون تردد على ان تسميني فورولو (من إفّر أي اخفى) . ومعنى ذلك أن لا أحد يمكنه أن يراني بعينه الطّيّبة أو الشريرة حتى ذلك اليوم الذي أعبر فيه بنفسي على قدميّ عتبة دارنا .

وقد يندهش المرء لو اضفت قائلا : ان هذا الاسم الجديد بيننا كل الجدّة ، لم يجعلني أضحوكة بين اترابي ، لشدّة ما كنت لطيفا محبوبا .

---

7) تبراري هو شهر فيفري . لقد اقرض فيفري يوما من ايامه الى جانفي الذي كان يريد ان يعاقب امرأة من الجرجرا . ويسمى ذلك اليوم امرذيل اي القرض (تعليق في الاصل الفرنسي) .

ومهما رجعت بي الذاكرة الى الوراء فإني في كل مرّة أحس حولي بصداقة دافئة ساذجة . إن أبعد صورة في الزمان تطفو فجأة في ذاكرتي لهي صورة طفل صغير جالس في فنائنا الصغير على جرّة مقلوبة وابنة عمه شبحة واقفة امامه ، تعد على اصابعها الخمسة الصغيرة ، ما تريد أن تطعمه اياه من طيبات المآكل . وارني هكذا وقد لبست جلبابا ابيض صغيرا ذا طربوش وأنا لا أكاد اقوى على المشي ، ولكني اثرثر بطلاقة . ربما كان عمري آنذاك ثلاث سنوات .

كان أبي وعمّي في عداد فقراء الحيّ . ولكنهما لم ينجبا الا البنات . لذلك كنت في المنزل اكثر سعادة من معظم اترابي بين اخوتهم .

الحقيقة أن حليمة زوجة عمّي ، والتي يستحيل عليّ حتى الآن ان أدعوها خالتي ، لم تكن تحتملني . أما أمي وأختاي وخالتاي — خالتاي بالمعنى الحقيقي للكلمة — فكّن يهمن بي هياما . وكان أبي يذعن لجميع رغباتي . أما جدّتي وكانت قابلة القرية ، فكانت تتخمني من جميع ما يهدى اليها من الطّيبات ، وكان ذلك يغيظ حليمة غيظا . أما عمّي فكان يحبني حبّه لابنه؛ لأنه كان يعرف قيمة الرجل في الجماعة ولأني كنت امثّل في عينيه مستقبل آل منراد . كان ذلك كافيا وزيادة لتنشئة طفلا تنشئة حسنة .

على انه ينبغي القول ان الجهود المتضافرة من كافة الاسرة لم تفض الى النتيجة المنشودة . كنت الولد الوحيد في الاسرة . وكان لا بّد لي ان امثّل بأس العائلة وشجاعتها .

وما كان أجسمه من مصير للرّجل القميء النحيف الذي كنت ! ولكن لم يكن يدور بخلد أحد أنّه يمكنني ان اكتسب صفات اخرى أو أن لا أجيب الى تلك الأمنية .

كنت اضرب اختيّ فلا أعاقب . كان لابد أن أتعلّم كيف تسدّد الضربات ! وكان يمكنني أن أكون فظا غليظا مع جميع الكبار من الاسرة فلا استثير منهم سوى ضحكات تنم عن الرضى . كان لي ان اكون سارقا وكذّابا ، وقحا . كان ذلك الوسيلة الوحيدة الكفيلة أن تجعل مني ولدا جسورا . لا أحد يجهل أن صرامة الاهل تنتج لا محالة مسكينا رعديدا ضعيفا لطيفا رخوا كأنه بنيّة . لم تكن المبادىء هي التي تعوز ابْنَيْ جدّي شعبان .

وداخلني زهو بنفسي وشعور بقيمتي منذ الخامسة من عمري وما لبثت ان اسرفت في اساءة استعمال حقوقي فأصبحت ظالما مستبدّا مع اصغر أختيّ وكانت تكبرني بسنتين. كنت أدعوها تيتي. وظلّ الاسم عالقا بها . لم تكن أطول منّي قامة ، وكانت تشبهني بقدر ما تشبه أخت صغيرة أخاها ، أي أنه كان يمكن تمييزها بفضل وشاحها وضفيرة شعرها الطويل . كان لها من سماحة الطبع ما يسمح لها أن تتلقى ضرباتي وتقابل تهكمي منها وسخريتي بها بحلم يندر تصوره لدى طفل في مثل سنها . على انه لم يفتهم أن يرسّخوا في ذهنها الاعتقاد بأن طاعتها واجب وأن موقفي حقّ . وكلما صادف ان اشتكت مني لقيت جوابا واحدا لا يتغير : « اليس اخاك ؟ كم انت سعيدة الجدّ لأن لك اخا ! ابقاه الله لك ! كفّي عن البكاء واذهبي فقبّليه ! »

وبفضل هذا الاسلوب ، انتهى بها الامر الى اعتقاد ان صيغة «ابقاه الله» لك غير منفصلة عن اسم اخيها ، وكان من المؤثّر سماعها تقول لأمها باكية :

ـــ اخي ابقاه الله لي ، هو الذي أكل حصتي من اللحم . اخي ابقاه الله لي مزق منديلي .

أخيتي ، انت التي اصبحت الآن ربة اسرة ، قد استجاب الله لدعائك وأبقى لك اخاك الشرير .

وكان ظلمي يقع على أختي الكبرى بيّة في صورة أخرى . كانت بيّة تساعد أمنا . وكانت تعرف بعد ، شدّ إزرها والدفاع عنها إذا اقتضى الحال . وقد فرضت نفسها بما لها من قوة ، ونجحت في أن تكون محترمة مهابة الجانب . كانت بيّة مكلفة خاصة بالسهر عليّ وبتسليتي . ولم أكن سلس القيادة . فقد أدركت سريعا جدا أنه يمكنني ببكائي أن أحصل على ما أرغب فيه . كانت الدموع والصيحات سلاحي الذي لا يخطىء موقعه .

على ان هذه الخطّة التي كانت ناجحة على ما يرام بين عائلتي سببت لي خيبة أمل كبرى وكثيرا من المتاعب خارج البيت . عبثا كنت اجهش بالبكاءَ فبنات عمي كنّ أول من انبأني أن ليس جميع الناس مجبرين على الاخذ بخاطري . كانت امهن التي تكرهني كأنني اللعنة ، ترسم لهن علنا سلوكا يسلكنه ازائي .

— ليس لكن بأخ . ليس لكن من أخ !

كانت اللهجة التي تقول بها ما تقول تدلّ بما لا يدع مجالا للشك أني كنت عدوّا . مازلت اسمع صوت حليمة يتردد في مسمعي وارى نظرتها الشريرة . لقد فهمت كراهيتها لي منذ زمن مبكر جدا .

كما أن طفلين من جيراننا في مثل سني او لا يكبراني الا قليلا ، ولكنهما اكثر مني تيقّظا ، بدّدا هما ايضا أوهامي بقدر المستطاع .

فاتخذت مع كافة جيراني وكافة جاراتي الموقف الوحيد الذي كان يمكنني اتخاذه اي أني كنت اتصنّع الدماثة والكياسة والصبر . كنت اعرف كيف اتملق اكثرهم جرأة ، كنت أعطي وأقرض ما يطلب منّي دون

كبير صعوبة . وكان اهلي يرون حلمهم بأن يجعلوا مني أسد الحيّ ثم في مرحلة اخرى اسد القرية ، ينهار شيئا فشيئا .

كنت حسّاسا الى درجة مفرطة ، وكنت فوق ذلك جبانا عندما اغامر فاخرج من شارعنا . مازال رفيقي «عقلي» يذكر صخرة من الصوّان ناصعة البياض جاثمة عند نهاية الشارع . كنت ما ان اجاوز تلك الصخرة حتى أأتمر آليّا بأوامره. كان اصدقاؤه اصدقائي وكنت احترس من اعدائه . كنت تابعه المتواضع . كان يدافع عني عندما يستطيع ، أو كان يقبل مخلصا مسؤولية القيادة ، فيعرّض نفسه هو للكمات ولا يتركني أجابه خصما الا متى كان يواجه اشد منه ضراوة . وعندما كنا نعود الى بيوتنا ، كنت استعيد شارات السلطة منه عند ذلك النُّصب المحتوم . وكان ، عندها ، مجبرا على ان يخضع لجميع نزواتي . ويعلم الله كم كانت مشطّة .

واذا صادف أن صنعنا لعبا ، كان ينبغي عليه ان يأخذ بنصائحي ، وعندما يفرغ من العمل ان يحوز رضاي . وفي كثير من الاحيان كنت احطّم بحركة خشنة ثمرة كدّه ومثابرته . كان آنذاك يمص اصابعه التي خدشها العمل ويقبل قراري الذي لا رجعة فيه في مسامحة تستحق التنويه .

كان يشعر شعورا مبهما أني أبعد منه خيالا وارهف ذوقا . أما أنا ، فكان لا مناص لي من الاعتراف بأنهم يحترمونه خارج الشارع اكثر مني درجات ، كنا متكاملين احسن ما يكون التكامل . لقد طلعنا على العالم معا أولا في جماعة الحي ، ثم في الجماعات الاخرى ، ثم في المدرسة .

في اي وقت بالذات ، وفي اي ظروف نشأت صداقتنا ؟ لا أحير جوابا . ذلك أن فوررولو الصغير البالغ من العمر خمس سنوات أو ستا دوما مرفوق في ذاكرتي بعقلي . كنا نسكن نفس الشارع . لا بد اننا تعارفنا

هنالك . على انه لا شيء يفسر تعلق بعضنا ببعض . كان ثمة غلمان آخرون ، ولكن لم تنعقد بين اثنين صداقة كصداقتنا .

كان عقلي مليحا كأنه بنيّة ، ومشاغبا كأنه شيطان ؛ لم يكن له شيء من رقتي ومن سكينتي . كان يحب أن يضحك وأن ينبز وان يضرب . كان لا يخشى الكبار وكانوا يغفرون له كل حماقاته اكراما لعينيه الجميلتين وبياض جلدته وملامحه الرقيقة المستقيمة. أما أنا فكان لي خجل على خجل وهو ما جلب لي من التقدير بقدر ما جلب له بسبب جرأته . كانت قبضتاه ورجلاه كبيرة كبرا مفرطا ولكنه كان يؤكد لي ان ذلك ضروري للعراك او للهرب . كنت معجبا بعقلي ، محبا له ، لأنه كان يملك كل ما كان ينقصني وأقدّر أنه تعلق بي للاسباب نفسها .

لا أذكر كم من الوقت استوجب منّا ارتياد الحيّ والتعرّف على جميع اطفاله ، وتعرفهم علينا . ومهما كانت الاحوال فقد اجتزنا تلك المحنة الاولى بنجاح . كان فيه اطفال يمكن لكل ان يضربهم « ضربة ابنة اقعدي و قومي »(8). وآخرون يمكن أن تسخر منهم وآخرون يكفي ان تنبزهم بلقت مستعار حتى تراهم يغادرون الميدان ويتوارون عن الأنظار . لا شيء من هذه المضايقات حصل لنا . بل قد انتهى بنا الامر الى ان فرض كل منا خصاله : أما هو فجرأته ، أما أنا فذوقي وحيويّتي .

وسرعان ما لم اعد اخشى الخروج وحدي والذهاب الى الجماعة ، وحتى ان ابلغ مشارف المقهى وكان يتردد عليه خاصة الباحثون عن أعقاب السجائر . وعندما كانت آبنة عمي شبحة تطلب مني أن ألعب معها

---

8) « أي ضربة من يقال لها اقعدي وقومي يعني ضربة امة لقيامها وقعودها في خدمة مواليها » عن الميداني مجمع الامثال (المعرّب) .

كنت اجيبها في غير تواضع كاذب : ان مشاغلِ أهم وأقرب إلى مشاغل الرّجال تنتظرني خارج المنزل. فكانت تطأطىء رأسها ذليلة ولا تزيد كلمة.

وكنت أجد في الايام التي أزدريها ـــ من باب الصدفة والاتفاق ـــ من يتهددني أو يتحداني أو يصدني عن الدخول الى الجماعة . بحيث كنت أعود الى المنزل باسرع مما كنت أتوقّع. كنت آنذاك أقبل في تواضع أن ألعب مع شبحة وسائر البنات . واحترس من التصريح بسبب عودتي المفاجئة . وأحاول أن أنسى نذالتي أو أن لا أفكر في ما كان يسدّد اليّ من اللّكمات .

لم يصادف قط ان طلبت الحماية من اهلي عندما كان خصمي ندّا لي : كنت إما أن أقبل النزال ، أو ان أهرب اذا ما كنت خائفا . كنت أخفي في حذق فرّي وهزائمي . لم أكن أخوض الا في انتصارتي . فمن الثابت أنه، بآستثناء أمّي ، ما كان أبي ولا عمّي ولا أي فرد من افراد اسرتي يهبّ لاغاثتي لو أني استغثت . ولو فعلت لكنت فاجأتهم مفاجأة غير سارة وهم يروني أولّي الادبار ثم لكانوا اجبروني على مجابهة خصمي . وقد حصلت لي بعد امور مماثلة ، خاصة مع عمي . فعندما كانت الغلبة في احدى تلك المعارك المباغتة من نصيبي، كان الجميع يهنئونني.أما اذا دارت علّي الدوائر فكانوا يمطرونني بوابل من سخريتهم .

أواه ، في تلك الاحايين كنت ابعد ما أكون عن التدليل . كنت أقرأ الاحتقار في جميع الوجوه عدا وجه امي العذب الكئيب . صحيح انه لم يكن لأمي من طموح سوى محبتي فوق كل شيء .

وقد ظللت احتفظ بشيء من الهيبة والروع من منطق عمي الصارم . كان صلبا لا يلين كان يرى أن ثمة حالات ثلاث ممكنة الحدوث وذلك تبعا لكون منافسي اصغر مني أو ندّا من أندادي ، أو أكبر مني سنا .

فاذا تعلق الامر بطفل اصغر مني ، سمح لي بتأديبه شريطة أن اهرب بعد فعلتي أو ان اختبيء . واذا جاء الى عمي مشتك يشتكي ، طلبني لمعاقبتي واحترس من العثور عليّ مواسيا الطفل واعدا أهله بمعاقبتي .

أما اذا تعلق الامر بصبيّ من اندادي ، فلم يكن لي أي داع لخشيته . كان عمي يبرز غاضبا أن الغلبة من نصيبي . فقد كنت اقتات احسن منه وإذن فلي من القوى اكثر مما لديه. أو أن «اباه لم يشترك في معركة قط» — ولا ينبغي لابن رجل جبان أن يجبر واحدا من آل منراد على التقهقر أو يقول « كان ابن ارملة » — وهو بحكم التعريف قليل الشجاعة . أو يقول انه غلام من صف منافس . فلم يكن يسمح لي بأي تقهقر أمام عدّو .

وبعكس ذلك ، لم يكن يقبل ان يضربني غلام اكبر مني سنّا أو أن ينبزني . ذلك ما كان يمكنني أن أثأر لنفسي من عمّي . كنت بشأن هذه النقطة الاخيرة أحيطه علما وبدقة بجميع ما يحصل لي فاذا سرقني ولد كبير كرياتي ، كنت اهرع الى المنزل باكيا بكاء مسترسلا وأشي به اليه . كان لونيس ينهض فيجري في طلبه ويصيح ويرغي ويزبد وكثيرا ما يصفعه صفعات خفيفة ، بينما كنت لا أفارقه قيد انملة .

نِعْمَ العمّ الطيب ذلك العم ! كان طفلا اكثر مني . كم من التفاهات جررته اليها جرا . لابد انه غفر لي ذلك في غمرة رقدته الطويلة .

# 4

من الواضح ان عمي لم يكن مخطئا عندما اراد ان يربيني تربية رجولية . الا انه كان يبلغ في سبيل ذلك من الحماس ومن الانحياز حد الاسراف . لم افد من دروسه الا قليلا . وان احدى حججه الدامغة وكانت اشد خطرا من سواها قد دعمت مذهبي الخاص في النظر الى الامور فعرفت وأنا ما أزال صغيرا قيمة أن يؤثر المرء السّلامة والعافية .

كان ذلك صباح ذات يوم ، خلال موسم التين . كان الفلاحون قد ملؤوا كيسا أول من ورق المرّان لثيرانهم وذهبوا يستريحون على البلاطات الرحبة في ساحة الموسيقيين . كنت أعرف جميع أولئك الرجال . هو ذا بو سعد نعامر يضفر قفة من قش الزيتون البرّي . جلست الى جواره . كان هو الذي يهمني . أعرف انه يحتمل الاطفال . لم يُخفني وجهه الاسمر رغم تجاعيده وعينيه البراقتين . انه حاسر الرأس لأن الطقس حار ؛ وجمجمته المحدبة البادية من تحت شعره القصير لتذكّرني ببطيخة . وتقويرة جبته تبدي صدره ومسربته . وقد وضع في شاشيته المنكوسة حقّ النشوق المصنوع من

القرن . كانت اعراف الزيتون البري تحتل بلاطة المرمر الاصهب . وكان يمسك ما شرع فيه من السلة بين رجليه المسفوعتين وكانتا تقومان له مقام ملزمة يسهل التحكم فيها . كان يقص ويضفر في آن .

كنت انظر اليه يفعل بكل انتباه . لكنني كنت قريبا اكثر مما ينبغي ، كانت اعراف القشّ وهي تنبرم تلامس وجهي .

ــ تنحّ عني قليلا ، يا آبن رمضان ، فالمقعد فسيح !

ــ كلّا ، اريد أن اتعلّم .

ــ لماذا لا تلعب مع أندادك ؛ فانت تجلب كافة الذباب على وجهك وعينيك .

ــ لي مكاني في الجماعة مثل سائر الناس .

ــ حسنا ! ولكن حذار أن أصيبك !

يتعلم جميع غلمان القرية منذ عهد مبكر أن لهم مكانهم في الجماعة . ولأدنى غلام ذَكَر من الحقوق ما لأي واحد . هذا ما لا نتردد البتة في أن نذكّر به الكبار بنفس القدر من الوقاحة واللياقة . آحتملني بوسعد وسكت عن الكلام وواصل شغله .

كانت فروع الزيتون البرّي تتشابك طيّعة ان قليلا وان كثيرا . واحيانا كانت تنكسر . آنذاك كان يتناول مُدية حادّة جدا فيعيد قطع الطرف المكسور . لا أقدر ان اصف كيف حصل ما حصل : احسست فجأة بحرارة لذيذة عند حاجبي عقبها مباشرة احساس بألم حادّ كأنه لسعة زنبور . كان قد اعمل حدّ سكينه في جبهتي . رفعت يدي إليها في خفة فإذا أنا اسحبها مضرّجة مملوءة دما . آنذاك بدأت اصرخ . هبّ جميع الرجال واقفين وهرعوا اليّ . كنت اتخبّط كمن اصابه مس من الجنون وأنا بين يدي الشيخ وهو يمسك بي ويطبق على الجرح ما فضل في قاع حق

نشوقه . ومزق رجل آخر «قندورته» وكانت بعد اشلاء وصنع لي منها عمامة بقطعة بالية من القماش . كان الدم ما يزال ينهمر وكنت مازلت اصرخ. كان بوسعد شاحب اللون ومديته ملقاة بين اعراف القش المبعثرة والقفة التي مازالت لم تأخذ صورتها بعد . كان مهموما يتساءل لاهثا ان كان جرحي بليغا .

ـــ كان يمكن أن تفقأ له عينا !

ـــ ولكني حذّرته، اليس كذلك ؟ كان قريبا مني اكثر ممّا ينبغي. تلك مشيئة الله ولا حيلة لي في الامر .

ـــ كان عليك ان تكون منتبها. ان هذا المؤسف جدّا . ومن يدري كيف سيقتبل الصبيّ اهله . اذهب الى بيتك يا منراد ، اذهب ! وقل لأمك ان تضع لصق الجرح رماد قماش محروق .

اتجهت الى بيتنا مضرّجا بالدماء وأنا مدرك اني قد نجوت من عملية اغتيال بما أن الشهود أنفسهم ما كانوا ليصدقوا بوسعد المسكين وكان يقسم لهم بجميع الاولياء والصالحين انه لم يتعمد ان يجرحني وانه يحبني كواحد من ابنائه . ولكن عبثا كان يقسم ، فجميع اولئك الناس الطيبين كانوا يهزون رؤوسهم مشفقين على حالي . ولا جَرَمَ ما كان يمكن الشك في صدقهم ولا اتهامهم بانهم ينشدون في نزاهة تفاقم الأمور واستفحالها .

كان أول شخص صادفته عند عتبة بابنا هو بالذات الشخص الذي لعله كان يحسن بالاقدار أن تبعده من طريقي في تلك الآونة . كان عمّي ، وقد استجلبته صيحاتي، وكانت أمي تقتفي أثره .

ورأوا الي وجهي المضرج بالدم ، وعصابتي القاتمة المبللة . قال عمّي :

ـــ من فعل بك هذا ؟

وصرخت أمي صرخة استغاثة :

ـــ قتلوا ولدي ، قتلوه .

وأجبته بقدر المستطاع . كان عمي زائغ البصر . قال

ـــ اسرع ، قل لي من ؟ ولماذا ؟

ـــ هو بوسعد نعامر

ـــ وفعلها متعمدا ؟

ـــ نعم ، اراد قتلي .

كان ذلك كافيا . اندفع عمي كأنه السيل العارم . لقد تخيَّل على الفور صورة الحادثة : ان بوسعد هذا من صف منافس، وكانت بيده مدية وانقض على ابن اخيه الاعزل . انه يريد قتل الغلام والقضاء على آخر آل منراد ... جرى عمي الى الجماعة مهرولا وبيده هراوة . لقد صعدت من قلبه الى رأسه فورة من الحقد . ليثأرنّ لشرفه ، وليفرضنّ على الناس احترام اسرته .

وهرولت امي وراءه فجرّت وراءها سائر أسرتي. كان جريانا اختلط فيه الحابل بالنابل . مازلنا لم نبلغ الجماعة واذا الزعيق والصراخ يصلنا. نسيت جرحي. اخذت اضطرب كأني الريشة في مهب الريح . كانت الجماعة مكتظة بالناس كأنها مدخل قرية النمل وطئها بعضهم . كنت وحيدا في حلبة الصراع . اين امي ؟ اين عمي ؟ تبينت في احد منافذ الجماعة كتلة من الرجال يتدافعون ، ورأيت في وضوح احد ابناء عمّ بوسعد وهو يقذف بحجارة فإذا هي تسقط محدثة صوتا أصم . ثم سمعت صرخة طغت على الجلبة . اندفع احد ابناء عمومتنا وسط الجمع وبيده هراوة ، ورفع شخصا كان ملقى على الارض : انه عمّي .

وعلى بعد حوالي عشرة امتار من ذلك الموضع ، وفي زقاق لا منفذ له ، كانت تدور معركة النساء ، وكانت نسخة من المعركة الاخرى صاخبة

بشعة . كن هنّ ايضا يمثلن كتلة متلاطمة ذات الوان مختلفة يطغى فيها سواد جدائل الشعر وحمرة الفوطات .

وامتلأت الجماعة اكثر فأكثر بالمتفرجين والمتصارعين. لا احد من المتفرجين يقف لا مباليا . ستستيقظ العدوات المستحكمة ؛ كما يمكن لبعض الحسابات القديمة التي لا تنتظر الا تعلّة ان تصفى الآن . لكن هو ذا الأمين (9). صعد على بلاطة وإلى جانبه شيخ من شيوخ الزوايا ناشرا صنجقا من الحرير الاصفر .

قال بصوت جهوري قوي :

— اللعنة على من يضيف كلمة او يأتي حركة .

تفرق الرجال . وتراشقت النساء بالضربات الاخيرة غدرا. كان قلبي يدق كأنه سينخلع . وكان حلقي جافّا وشفتاي . لم أكن قادرا على البكاء ولا على الهرب . لمحت امي وشعرها تذروه الرياح وهي تبحث عن وشاحها . ذهبت قريبا منها . عثرت عليّ فلم تعد تبحث عن شيء . شدت بقوة على يدي الصغيرة وغادرت الساحة . كانت أمي أذنها ممزقة ، وكانت جدتي تلّوح في يدها بقبضة من الشعر ، وكانت بيّة غنمت فوطة «آيني» زوجة بوسعد . كن هائجات مائجات يردن مزيدا من العراك. ودوخنني بوابل الشتائم يمطرن به عدواتهن وكن بعد بعيدات . ولعل الاخريات كن ايضا يشتمنهن بمثل شتائمهن .

وما كدنا ندخل المنزل حتى دخل اهالي الحي يحملون عمي وقد اصبح لا يكاد يعرف . لقد اصابته حجارة كبيرة في رأسه وطعنة في جنبه . كما ان ابن عمنا قاسي تعرض هو ايضا الى ضرب الهراوات . أما الصف المنافس

---

9) رئيس القرية (تعليق في الاصل الفرنسي) .

فقد نال تماما ما يستحق . فقد نقل بوسعد الى بيته لأن عمي صرعه ، وفقد اخوه نصف اسنانه . كما تضرر آخرون تضرّرا بالغا . فهذا عيناه متورمتان ، والآخر وجهه مثخن بالجراح وهذا ظهره مرضوض .

كان واحد منّا يقوم باستعراض للنتائج ، بينما كنا نمدد عمي على حصير . كانوا كلهم يحملون آثار المعركة ، من خدوش طويلة تنضح منها قطرات من دم ومن جلابيب ممزقة وعمائم على الأكتاف .

وتقدمت امي بمحبس من الفخار مملوٌ ماء لغسل الجرحى . قال احدهم :

ــ كلّا ! ينبغي ان نتركهم على حالهم وأن يراهم **الرّوامى** (10) هكذا .

وزجرها عمي قائلا : ابتعدي .

وأضاف قاسي : سنركبك على ظهر حمار وسنذهب لمقابلة القاضي فورا .

وقال آخر : نعم وسيفعل الاخرون مثلنا تماما ، ينبغي ان نسبقهم الى ذلك .

وأدلى كل برأيه ، ولكن الأقوال كان يغلب عليها طابع الحيرة والتردد . كانوا جميعا يخشون العواقب التي يمكن ان تنجر عن هذه القصة . ولم يكن اي تدبير من التدابير المقترحة مرضيا . وتواعدوا على العود مساء بطّمهم وطميمهم ، حتى يعدّوا مخطط دفاع آيت موسى ضد آيت عامر . ثم انسحبوا جميعا باستثناء ابن عمنا رباح ، وهو شاب متين البنيان ، جلس

---

10) جمع رومي ، أي فرنسي أو غير مسلم في لغة شمال افريقيا ، نسبة الى الروم (المعرّب) .

قريبا من بيت المؤونة على اثر ايماءة من عمي .

وفي اجتماع العائلة ، بدا وكأنهم قد نسوا انّي السبب الاصلي في هذا المصاب . لكن خالتي حليمة وبناتها كن هنالك لتذكيري به دون شفقة . كانت حليمة ظاهرة الاستياء . لقد كانت اقلهم حماسة في المعركة . كانت تحوّل عينيها عن زوجها باصرار وتحدجني بين الفينة والفينة بنظرات ملؤها الغضب. أما ابنة عمي جوهر ، فقد مرّت قريبا مني وقرصتني قرصة لاذعة .

ـــ انظر الى عملك ! ما اجمله . انت السبب في كل هذا .

لقد آلمني كثيرا الا أني لم اقل شيئا . وحبست غصة في حلقي . نظرت الى امي بائسا . لقد رأت كل شيء فغضت من بصرها عاجزة . تخلت عني . وفجأة هبّ عمي جالسا على مؤخرته . لقد رأى هو ايضا كل شيء . صاح في امرأته :

ـــ اخرجي من هنا انت وقحابك .

وخرجت حليمة وهي تغمغم ساخطة . وقال لي :

ـــ أُدنُ، فورولو . اذن لقد تألمت كثيرا ؟

واخذ بيدي وقرّبني إليه . لم اعد احتمل . واغرورقت عيناي بالدموع . وأخذ صدري الصغير يهتز وبكيت ، بكيت دون انقطاع .

والقت بي امي على ظهرها وخرجت هي الاخرى . وتركناه وحده وجدّتي ورباحا . فبينما كانت الاولى تضع لصق جروحه عجينة ضاربة الى السواد من صنعها الخاص كان هو يدلي الى رباح ببعض التعليمات السرية . فأبي غائب . لقد ذهب مبكرا الى تيزي ـــ وزو ومعه حمل من العنب على ظهر حمار . ولن يعود الا مع حلول المساء . لم يشهد شيئا من المعركة ، وآيت عامر يعرفون ذلك . وهم خليقون ان ينصبوا له كمينا بما ان الغلبة كانت

لنا عليهم هذا الصباح وصفّنا كله فخور بان كانت الغلبة له. لقد اتخذ القرار بالاجماع . وليس ثمة ربما من يخالفنا الرأي في ذلك سوى خصومنا وقد اعلنوا بدورهم وبنفس الاجماع انهم المنتصرون . غير اننا لم نكن لنتوهم ذلك بالمرة . هذا هو السبب الذي من اجله استبقى عمي رباحا. وها هو الآن يكلفه بأن يتقلد بعض السلاح وأن يذهب للقاء ابي وينبه بعض اهلينا الاقربين الحازمين حتى ينتصبوا هم ايضا خارج القرية ، في المكان الذي يتوقع ان يكمن فيه الاعداء .

وعندما عاد أبي الى البيت سليما معافى ، تبينوا في سرور يشوبه بعض الغيظ ان تلك الاحتياطات كانت غير مجدية . ومن حسن الحظ ! ذلك ان آيت عامر ، لما تنطوي عليه قلوبهم من التواضع ، رأوا انهم هزموا آل منراد ، فلبثوا في بيوتهم حذرا .

ولما رأى ابي العمائم الداكنة وجلطات الدم ، حنق حنقا شديدا وأخذ يقذف بكل ما كان سيقذف به من اللعنات لو انه شهد « حفل » الصباح . كان يلوّح في اتجاه الجماعة تارة بهراوة وطورا بخنجر واخرى بمسدس قديم . كان يريد ان يندفع خارجا ولكن جدتي وحليمة وبناتها تعلقن بقندورته وبرقبته وبديه. وأما امي فكانت بكل بساطة تمسك برجليه مضمومتين . وكان عمي ينظر اليها جامدا . أما أنا ، فكان صوته الغليظ يقع في اذني موقعا لذيذا. كنت أحس بالاطمئنان من وراء مثل ذلك الغضب . ودخل بعض الجيران بيتنا وأفلحوا في تهدئته. كان احدهم قد جاء توّا مبعوثا من لدن الامين وقد طلب منا ان ننتظره وأن نستقبله صحبة «التامن» وشيخي القرية .

وتحت اشراف جدتي ، طفقت النسوة في الحال يعددن لوليمة كبيرة من

الكسكسي . اخرجت العجوز من «الشواري» (11) التي حملت العنب الى المدينة بكل نخوة واعتزاز «شُكّ» لحم كبير اشتراه ابي . وقالت تتحدث عن اعدائنا :

ــ سنرى ان كان اولئك الاوغاد سيستقبلون الجمع الكريم مثلنا باللحم الطازج .

قالت امي : سيقدّمون لهم الحمّص .

وقالت جدتي : بالتأكيد ! اننا فقراء ، لكن والحمد لله لم يحمر لأزواجكنّ وجه خجلا طول حياتي متى تعلق الامر بتكريم ضيف من الضيوف . بهذا تعرف الاسر الكريمة .

بكل تأكيد ! ولكن لو صادف ان ابي لم يكن اشترى اللحم ، لما كانت جدتي تعوزها الحجج ولما اعتقدت انه ينبغي ان تخجل وهي تقدم لضيوفها، هي الاخرى، الحمص أو الفول .

في ساعة متأخرة من الليل ، سمعنا ابن عمنا يسعل وصرير البّوابة القديمة . كان يستبق الاعيان ببضع دقائق . لم يعد من الضروري ان يلتئم مجلس الاسرة كما كان يريد . وتراءت له شبه تسوية . فأحس بالارتياح. سيكتفي بآستدعاء بعض شيوخ الحي ، وهم من الخطباء اللبقين ــ واعلن ابي موافقته . وخرج وذهبت امي وخالتي وبنات عمي يختلين في الغرف الصغيرة المقابلة للبيت الكبير حيث سيجتمع الرجال ، وظلت جدتي وحيدة ، الى جانب الكانون وألحت الى انها لا تملك أن لا تقول كلمتها .

---

11) (كذا في النص الفرنسي). هو خُرج يوضع على ظهر الدواب للحمل (تعليق موجود بالاصل الفرنسي)

وما لبث ان اقدم الأمين يتلوه شيخان صالحان ونيف وعشرة اعوان . اجتازوا الساحة الصغيرة صفا واحدا ، بخطى وئيدة متلفعين في برانيسهم وعليهم سيماء الجد والوقار . رحّب ابي بهم وقبّل رؤوس الشيوخ على طرابيش برانيسهم الدقيقة . كان عمي يجلس في زاوية من الزوايا مستندا الى بعض الوسائد. ترك الرجال أحذيتهم قرب الباب وتحلّقوا على زربيتنا الحمراء الكبيرة . كان أبي ينتصب واقفا مستندا الى سارية حجرة المؤونة . كان يشعر ببعض الحرج .

وبسمل الامين وحمدل كما هو الحال عند افتتاحية كل خطبة وأخذ في الحديث فقاطعه ابي قائلا : ــ مرحبا بكم بيننا ، الليالي طويلة ، فلنتعشّ أولا .

وابدى «التامن» بعض الاحتجاجات الشكلية . فهم يعلمون أنه ينبغي ان يأكلوا أولا أو آخرا . بل ويعلمون انهم سيأكلون مرتين ، لأنهم اذ يغادروننا سيذهبون لزيارة خصومنا . ولعلهم قد فكروا أن رمضان في النهاية محق في ان يبدأ كل شيء بالكسكسي فهو يمكّنهم هكذا من هضم طعامنا أولا قبل ان يتناولوا طعاما ثانيا . كما ان ابي ، من جهته ، قد رأى رأيه في القضية . فهو يعلم ان المرء متى ذاق الخبز والملح في بيت احدهم اصبح من العسير عليه خيانته. ولكي يتم انزال البركة (12) علينا، منح كلا من الشيخين خمسة عشر فرنكا . لقد هدر في ذلك ثمن منتوج الشواري بأكمله. لكن لا بأس فالجميع مرتاحون. الكسكسي لذيذ واللحم لذيذ، والشيوخ أكرمت وفادتهم . وبعد الخطب تنتظرهم قهوة لذيذة . وستنطلق الالسنة بكل ما نريد . ليست المسألة عويصة جدا فالامر يتعلق

---

12) الحظ والنعمة ، (تعليق في الاصل الفرنسي)

باصلاح ذات البين بين اناس قد هدأت ثائرتهم بعدُ تمام الهدوء .

وفعلا ، فلا آيت عامر ، ولا أهلي يفكرون في تعقيد الأمور . لكن كل عائلة،حفاظا منها على سمعتها، تريد ان تحمل الناس على الاعتقاد انها شديدة المراس . في تلك الظروف والملابسات ، يقف الاعيان والشيوخ موقف جد وانشغال يقع من المعنيين موقعا حسنا .

ــ الا فاسمعوا و عوا، فآل منراد يشعرون بنخوة عظيمة اذ استنفروا جميع هذه اللحى البيضاء التي وفدت عليهم لمحاولة تبديد الزوبعة، ينبغي أن نأمل لها النجاح . ــ والحقيقة ان الخدعة لا تنطلي على أحد . فالمتعودون على مثل هذه المصالحات يعرفون انها تنقلب دوما الى وجبتين فاخرتين وحلاوة يختلف مقدارها بحسب قيمة الرؤساء .

واذن فبعد أن طعموا وشربوا بكل نزاهة قرروا قراءة الفاتحة : فاتحة للاحياء، وأخرى للأموات وثالثة للآلهة واخرى للمحاصيل وخامسة لذكر العائلة . كانت الفاتحة الاخيرة هي التي وقعت من قلب جدتي موقع الرضى والقبول فطارت من النشوة .

وطلب الامين من عمي ، حفاظا على الشكليات ، ان يقص عليه القصة . صورة الواقعة كما يلي : «وصل فوررلو الى البيت شبه ميت. فذهبت الى بوسعد استفسره، فردّ عليّ بما اكره. وتعاركنا. ولما كان حيهم قريبا من حي الجماعة خرج آيت عامر بأسرهم . وتلقيت طعنة . ووصل اصحابنا واشتبك الجمعان واختلط الحابل بالنابل . ثم وصلتم جميعكم». الامر واضح ودقيق مضبوط . على ان كل واحد على علم بأدق التفاصيل . حكم اول المتكلمين لنا حسب الظاهر، كما سيحكم بعد قليل للآخرين.أما الذين تكلموا بعده فرددوا تقريبا نفس الكلام ولم يختلف بعضه عن بعض الا في ما فتحوه من الأقواس واعتمدوه من المقارنات وفي

التقريبات التي اوحى بها اليهم ذلك الوضع . وأسندت الكلمة الى الشيخين . الكلمة الآن للشيخين ! اخرج احدهما كتابا بالعربية قديما مسودا كله من الدخان ؛ ملفوفا في منديل . وجمجم كلاما لا يفهم ، ودعا لنا بالبركة ثم دعا مباشرة علينا بان ينزل علينا صاعقة من السماء ان لم نهدأ . وفي الحال مالت جدتي الى الكتاب الشريف تقبله مرتعدة بشفتيها الخجولتين . وطلبوا ان يقسم عمي ويده على المصحف الشريف ان لا يعود البتة الى اضرام جذوة النزاع . وسيحصلون على نفس القَسَم من الطرف الآخر . فمن غير المجدي اللجوء الى القضاء الفرنسي لأنه قد يعقّد كل شيء . ولكن بما ان الدم قد سال، فإن «القايد» سيبحث عن معرفة حقيقة ما جرى، وسيتكلف الأمين بتهدئته مقابل مائة فرنك يعطيه اياها من جيبه حتى نرجعها اليه ، نحن وآيت عامر.

فسرّوا لنا كل ذلك . ظل عمي صامتا صمتا يدلّ على انه ينطوي على كثير من التأملات الدفينة . كان ابي مقتنعا . أما عن علاقاتنا المقبلة مع أعداء هذا الصباح ، فلم يهتم بها احد . المهمّ أن يكف العراك .

وخرج الاعيان لـ « تهدئة » آيت عامر كما جاؤوا لـ « تهدئتنا » . واستيقظنا من الغد وقد اصبح كل طرف من الطرفين رسميا عدوا للآخر . لقد دفعنا في سبيل ذلك ثمنا باهضا .

منذ الآن لن يكلم بعضنا بعضا . لن نتبادل العون والمساعدة ، ولن يصادف بوسعد ان يراني امامه قبل مدة طويلة وأنا اتعلّم منه مجانا دورسا في صناعة السّلال القبايلية .

# 5

كانت خالتاي تسكنان نفس النهج الذي يسكنه والداي . وكان جدّي أحمد قد تركهما عندما حضرته الوفاة في منزل صغير ليس فيه زريبة ولا حجرة مؤونة . ويتصدر زاوية من زوايا المنزل الصغير أكوفي بطين لم تفلح خالتاي قط في ملئه . أما السقف فمنخفض وليس للباب سوى مصراع واحد . ولا يتجاوز عرض الساحة الصغيرة قامة رجل واحد وطولها طول الواجهة بحيث كنا نحس فيها بشيء من الضيق كفراخ الصّعوة في وكرهم المستدير المظلم . الا أننا كنا نحس فيها بدفء عذب هو دفء الأنس والمودة الدفينة الهادئة . لكأن الحيطان التي تلامسك لمسا خفيفا في كل حركة تأتيها تداعبك . وتبسم لك الاشياء في الظل . لم يكن يشتمل على أي داع من دواعي الحزن، سجن طفولتي العزيز . وتبدو لي الأوقات التي قضيتها به في منتهى القصر.

لم أعرف اسم كل واحدة من خالتيّ الا بعد ان عرفتهما بعينهما معرفة جيدة . لم يكن الاسم يعني شيئا بالنسبة اليّ . شأن آسم أبي

وأمي .وأذكر اني علمت من فم آبنة عمّي الصغيرة أن أباها آسمه لونيس وأن أبي آسمه رمضان . وأن أمي آسمها فاطمة وأمها حليمة . لكن فهمت على الفور أن الاخرين هم الذين يسمونهم كذلك وأن لنا في العائلة كلمات أخرى اكثر عذوبة لا يملكها سوانا . وبالنسبة اليّ كانت خالتاي تدعيان تباعا خالتي ونانا .

كانت خالتي هي البكر . كانت تبدو لي كبيرة جدا ، أكبر من أمي وكانت تشبهها بعض الشبه . كان لها وجه مستطيل ناتىء العظام ، ووجنتان شديدتا الحمرة، وقوام عنز شرود لعوب تحلّيه عينان سوداوان واسعتان وفرع غزير لم تكن تقدر على ترتيبه تحت وشاحها وكان غالبا ما ينفلت فوق كتفيها . كان في هيأتها من الوحشية والأنفة بقدر ما كان لأمي من التواضع والاستسلام.

وكنت اطلقت على الاخرى ذلك الاسم العذب : نانا . كان لها من العمر عشرون سنة ، وكان عمري أنا ست سنين . كانت في سن ابنة عمي جوهر وكان لها قوامها نفسه . إلا أن أخواتها كنّ يتفقن على القول بأنها أكثر منها حسنا . ومهما يكن من أمر ، فقد كانت أكثر منها رقة وعذوبة الى حد بعيد . كانت محبوبة من جميع نساء الحي وكنّ يدعونها « يمينتنا » . وكان ابوها قد دللها وقامت لها اختاها مقام الأم . فتعودت على ان تأمر فتطاع . ثم حان وقت لم يكن لأختيها أن تقرّرا شيئا دون مشورتها . كانت فاطمة ، وقد اصبحت ربّة الأسرة ، تتلقى تعليماتها ؛ ولم تكن خالتي تناقش أوامرها البتّة ؛ وعندما اتفكر الآن قليلا أعترف بأن امي وخالتيّ كانتا محقّتين عندما اسلمتا امرهما الى نانا . أما امي التي لم تهادنها الهموم والمشاغل منذ موت جدّتي ، ثم موت جدّي ، فقد اصبحت مخلوقا ضعيفا وجلا ، مترددا ، عاجزا عن التشيع لرأي . فتراها بعد أن تتقدم في

تخجل ببعض الاعتراضات التي يوحي بها اليها رشادها أو تجربتها في الحياة ، تذعن فلا تعاكس ابدا من تحب . أما خالتي فلم يكن عيبها فرط الرشاد . كان لها تهوّر عمي لونيس ، لكنه كان على الأقل يعمل فكره. كانت خالتي كثيرا ما تخرج عن المتعارف والمألوف . لم تكن قادرة على ضبط نفسها . وعندما تكون على صلة بأمثال اولئك الناس ، تصبح علاقات حسن الجوار علاقات عارضة مؤقتة . فقد كادت خالتي ، أكثر من مرة، أن تفقد بنات أحمد ما لهنّ من قيمة في عيون ابناء عمومتهن. وما كانت دموع أمي الكاذبة، ولا صمت ابي الكئيب ولا سند عمي المنحاز — وكان دوما يدافع عن خالتي — لتسوّي من الأمر شيئا. ومن حسن الحظ أن «يمينتنا» كانت هنالك. ومراعاة لرقتها ، كان «قاسي» يصفح عن خالتي انها ضربت زوجته ضربا مبرحا ، ويغفر ابن العم «عرب» انها شتمته، أما زوجة عمّار وهو قريب آخر ، فكانت تصم أذنيها عن كلّ استفزاز. لكم كانت نانا بشوشة. لقد وُهبت صوتا من شأنه أن يهدىء الجيران .

— لا تنصتوا الى خالتي ، يا أبناء عمومتي ، ! انها مجنونتنا . انها مجنونتكم . يجب احتمالها . آخذوني بأي شيء ! وفاطمة أيضا ! ولكن اتركوها وهذيانها . سيثوب اليها رشدها وستندم على ذلك بعد هنيهة .

وكان ذلك صحيحا. كانت خالتي تندم دوما على اندفاعها. آنذاك كانت تقرع السن ندما ، وتبكي وتحاول ان تصلح ما افسدت يداها. وكانت دوما تنجح في مسعاها لأن اساليبها كانت فذة يتعذر تقليدها. كانت تقوم بجميع المبادرات فتمحو باللّائمة على نفسها متحمسة وتوليك عطفها بنفس عدم الكلفة الذي به حرمتك منه امس وتوقع خصمها في حيرة من امره حتى انه ليتساءل حقا ان لم يكن إزاء مجنونة . وعلى العموم

كان ذلك ينطلي عليه فيصفح عنها موقنا انه سيصفح مرات ومرات. هكذا كانت تسوي علاقاتها مع غيرها وتفسدها بآستمرار. وفي نهاية الامر فإن مثل هذا السلوك قد اساء اليها كثيرا. ولنا عبارة لطيفة ننعت بها امثال هؤلاء الناس ، هي كلمة بين مجنون وبريء، بدون اي معنى مستهجن. ويستحق ذلك اللقب كل اولئك الذين لا يعرفون كيف يتكتّمون، والذين لهم حساسية مفرطة، والذين هم أشدّاء مع أنفسهم ، ويخشون أن يجرحوا غيرهم فينسون مصلحتهم ويلحقون الأذى بأنفسهم لخشيتهم ان يؤذوا غيرهم وعلى العموم اذا بدى فيهم بعض العقلاء آراءهم قالوا: « انما هم اطفال !». وكانت خالتي طفلة . وقد ظلت كذلك حتى وفاتها . ولذلك لم يكونوا يولون اي اعتبار لما كانت تقول أو لما كانت تريد أن تفعل. كانت تخضع دوما لما تأمر به نانا في تبرم طفل نزق . وكالطفل أيضا كانت مزودة بكثير من الحس والاستبصار . وأحيانا كنت تظنها وهبت حسّا زائدا يسمح لها أن تتنبأ فلا تخطىء نوايا الآخرين إزاءها أو إزاء من تحب. فقد كانت مجرد نظرة او إيماءة أو كلمة أو تغير طفيف في السلوك تكفي لتنبيهها. ولم يكن يدور بخلدها حتى مجرّد أن تستفيد من هذه الميزة وأن تستخلص منها ما يجعل لها بعض السلطان. كلا. كانت تحتفظ بآنطباعاتها. كانت عاجزة عن تفسيرها وكان من غير المجدي مشاطرة الآخرين إياها. كما انها كثيرا ما كانت عاجزة عن كبح دفق من عواطفها الجيّاشة . كانت تطلق العنان لحبورها او لحقدها ، لمحبتها او لكراهيتها . ثم كان كل شيء يعود الى نصابه .

كان طبع خالتي يلائم الصغير فورولو كل الملائمة . كنا نتفاهم كأحسن ما يكون التفاهم . كنت أحبّ نانا وأحنو عليها ولم أكن القى منها الا الملاطفة والمداعبة. كانت تدللني ولا تنفك تغمرني بقبلاتها

وتتخمني بالمآكل وتطيعني فيها آمرها به . أما خالتي فكانت ترى في علاقاتنا رأيا آخر . كنت بالنسبة اليها شخصا كسائر الاشخاص . كانت بيننا ، ان صح التعبير ، علاقات ند لندّ . كانت تريد ان تتناقش معي وان تقنعني وتغضب اذا اقتضى الحال أو تعتنق رأيي ، عندما كانت تعتقد انه الصواب . كان هذا الاسلوب في النظر الى الامور يروق لي كثيرا . كنا نتخاصم ونهذي جادين كل الجدّ . واصبحنا اصدقاء بأتم معنى الكلمة .

إن أختى بيّة هي التي أدخلتني الى منزل خالتيّ. كانت في أول الامر تحملني على ظهرها ، عندما كان عمري سنتين أو ثلاثا حتى تلهيني ، بينما كانت أمي تقوم بشؤون المنزل . ثم عندما اصبحت قادرا على المشي ، كانت خطواتي الأولى تقودني دون ان اشعر الى مسكن خالتيّ الصغير كما لو كان ذلك، المرفأ الآمن الوحيد الموجود بالنسبة إليّ خارج منزلنا . كما أن بيّة تعودت هي الاخرى مبكرا على العيش مع خالتيّ . وما لبثنا أن كوّنا على هامش الأسرة الكبيرة اسرة صغيرة ، وحلقة حميمة أنانية . كانت لنا أسرارنا الصغيرة وأحلامنا الساذجة وألعابنا الصبيانية ونزاعاتنا التي سرعان ما كانت تتبدد في جو من الرقة والحنان .

وكانت خالتايّ تشتغلان بصناعة الخزف والصوف . وكانت الساحة الصغيرة دوما مكتظة بالأواني الفخارية . وهنالك ، في زاوية البوّابة، كومة ضخمة من الحطب ستستخدم للشيّ . تبدأ معالجة الطين منذ فصل الربيع . فتذهب بيّة وخالتي في طلبه ومعهن قفاف يجلبنه فيها من مكان يبعد عن القرية عدة كيلومترات . وتطرح قطع المدر في الساحة الى الشمس ثم تسحق حتى تصير غبارا . وبذلك الغبار وقد شرب الماء، تصنع خالتاي عجينة تملأن بها جرارا . وبعد يومين تصبح العجينة متماسكة.

آنذاك يتعين خلطها بقوة وتضاف اليها شظايا وعاء قديم مسحوق. فتكوّن حبّات الطين المشوي مضافة الى الطين الطري ، على هذه الصورة ، عجينة لا تتصدع آن الاوان لتشكيلها .

كانت خالتي آنذاك تشمر أسفل قندورتها حتى الركبتين ويداها عاريتان، وقد رفعت وشاحها على هيئة عمامة . فتضع رزمة كبيرة من الطين على لوح وتنشط في تشكيل قاع الجرة أو القدر او الصحن. هو دوما قرص مستدير تمام الاستدارة؛ خالتي شديدة الانتباه. وتعمل بسرعة. أعرف أنه لا ينبغي أن أتحدث إليها . ليس ذلك أوانه . وتتناول نانا الطين بيديها الصغيرتين الشاحبتين ، ضاحكة مرتاحة كل الارتياح ، فتهرسه وتجسّه وتداعبه فيطفر من بين اصابعها الرشيقة شيء كالعصا يطول ويترنح ويتلوى كالثعبان . وعندما ترى ان طوله كاف ، تتوقف وتقطعه قطعا وتحيط به القرص الذي أعدته خالتي ، في عناية . آنذاك تعمد الى لوح صغير من الخشب شديد الملاسة فتكشط الطين وترقق من الشق القائم . وسرعان ما تصوّر اسفل الجدار الداخلي . وتمر الى القاع الموالي ثم الى آخر ولا تلبث الا قليلا حتى تدرك اختها .

كانت خالتاي لا تصنعان الا ثلاثة مواعين أو أربعة في آن لأن الساحة ضيقة . وحالما تفرغ نانا من تصميم الماعون الاخير تعود الى الاول وقد جفّ قليلا ونحن نقول انه شرب . فتأخذ من جديد اسطوانة من العجين وتضيفها الى ما قد شرع فيه . ثم تستعين بالمكشط فتدحو الطين وتجذبه وتصقله ، وترققه وتسويه وتأتي على النتوءات. وتتصاعد الجوانب شيئا فشيئا فتتشكل ملامح القدر أو الجرة فإذا يدها اليمنى ممسكة بالمكشط تشكل الداخل، واليد اليسرى تراقب الخارج وهي لا تنفك تداعبه حتى تحمله على ان يتخذ صورة سوية . ولا يقتصر عمل خالتي على صنع قيعان

القدور فهي في مهارة نانا. إلا أن كافّتهم مجمعون على ان للنجار التي تخرج من بين يَدَيْ نانا طابعا خاصا. فهي دوما متوازنة الاجزاء متناسقة الخطوط أعناقها فارعة الطول . أما خفتها ودقة زينتها فتجعل جميع انيقات القرية يفضلنها على ما سواها . وهو مصداق قولهم ان ما ننجزه انما هو مرآة لذواتنا.

ولكل صانعة فخار ، أسلوبها الخاص بها . حسبك ان تعرض شيئا مهما يكن على أقلّهن خبرةٍ وتجربة ، حتى تدُلّك فورا على الايدي التي سوته. وتمتاز نانا عن منافساتها امتيازا واضحا يزيد في ابرازه ما تتسم به من رقة وتواضع . لذلك ذاع صيتها وكثرت حريفاتها. ولم تكن خالتي تغار منها ، فهي أولى المعجبات باختها . تترك لها لطيف الاعمال وتهتم بالجرار وقصاع الكسكسي والقدور .

ثم لا تلبث الساحة الصغيرة والمنزل أن يكتظا بالأواني والقدور تجتاح الرفوف اجتياحا وتتسلق فوق الاكوافي الكبيرة . في تلك الآونة بالذات ينبغي لنا ان نتحكم في حركاتنا وأن نطهو في حذر . ولكن لا بيّة ولا أنا فكرنا في أن نهجر خالتينا . فنحن هنا للنظر. كثيرا ما تكون خالتي متعكرة المزاج ، الا أن نانا لم يكن يكدّرها مكدر البتة . لكل ماعون قصته الخاصة به وطابعه الخاصّ . فهو ينشأ ويتطور مصحوبا بتقديرنا أو باحتقارنا . واحيانا كنا نضحك من خالتي ضحكات ساخرة وقد عيل صبرها واخذت تتهددنا وهي ترفس في غيظ شيئا كانت بدأته بداية غير موفقة فإذا هو يتفرطح على اللوح كومة لا معالم لها على نحو محزن . فنختبىء خلف بعض الجرار الضخمة التي لا تنتظر الا تعلّة للسقوط. فتهدأ ثائرة خالتي على الفور.

وحالما تفرغ خالتاي من عملية الخلق هذه تتنفسان الصعداء . فما

بقي من العمل لهو ممتع لذيذ. فإذا جفت المواعين ، وجب تزيينها . أما الطين الذي يدخل في صنعها فهو إمّا ضارب الى الصفرة أو الى الحمرة . ان الجرار الصغيرة والاواني والجرار وبوجه عام جميع الاشياء التي لا ينبغي أن توضع على النار ، تطلى بقشرة من الطين الابيض تدعك بحصاة ملساء . وليس التمليس بالامر المعقد . فبيّة وتيتي كان يعهد اليهما احيانا بإبريق وأحيانا يعهد الى كلّ بابريقه . يجب التدرّب على الجد والمثابرة . وعلى تلك الارضية الصقيلة البيضاء اللّماعة كانت نانا وخالتي تخطان تصاويرهما . أما الاحزمة العريضة والمعيّنات والمربعات والدوائر فتخط باللون الاحمر بواسطة ريشة من الصوف غليظة . أما الخطوط السوداء الرقيقة المستقيمة فلا أحد مثل نانا يعرف كيف يخطها بواسطة أعراف من الشعر غير مهذبة . ينبغي أن يتوفر للمرأة صبر جنّية ساحرة ولطفها حتى تعالج تلك الريشة اللعوب المصنوعة من بعض اعراف البغلة أو تلك الشعرة اللدنة التي تتثنى فتطيف بقطرتها السوداء كما صادف واتفق ، على مساحة ناصعة البياض . وتنجح نانا في رسم الزوايا في مهارة مهندس . فتصنع مربعات رشيقة وترصع جميع التصاوير الحمراء التي تطبقها خالتي الممسكة بريشة الصوف بحاشية مستقيمة تمام الاستقامة. ويشغل كل هذا العمل خالتي خلال فصل الربيع . أما الصيف فهو انسب الاوقات للشيّ. وليستا في حاجة الى انتظار . فكومة الحطب قد تم اعدادها منذ زمن طويل . ويوم الشيّ يوم عظيم . فهو يضبط ضبطا مسبقا بمنتهى الحذر والاحتراز . فلا ينبغي أن يصادف يوم خميس ولا يوم جمعة لأنه لا ينبغي مخالفة أوامر النبي وقد جرت العادة باجتناب يوم الاثنين لأسباب غامضة إلّا ان اقصى ما يمكن أن تبلغه ذاكرة صانعات الفخار عن أفضل أوقات الشيّ أنها تكون يوم ثلاثاء أو يوم اربعاء شريطة أن تكون الأحوال الجوّية ملائمة . فلا بد من

سماء صافية ومن جوّ جافّ لأن أقل نسمة حريّة أن تتسبب في خسائر فادحة لأن العملية تحصل في الهواء الطلق خارج القرية . ورغم جميع هذه الاحتياطات فإن صانعات الفخار يعرفن أن ثمة مخاطر تترصدهن هي الأمور التي ليس لها من تفسير والأمور غير المتوقعة والحظ أو الصدفة . وعندما توقد النار ، ينقبض القلب من الجزع . فأحيانا يطقطق الحطب فإذا الأواني تنفجر كأنها المفرقعات فيحصد المرء ثمرة عمله شظايا لوتها النيران أو أواني متشققة متصدعة غير صالحة للاستعمال . وآنذاك لا يبقى له سوى البكاء والعويل .

أما عندما تنجح عملية الشيّ فإن أمي وأبي يشاطران خالتيّ السرور والحبور . فنحن نعرف أن الحبّ سيرتفع بقدر كاف داخل الأكوفي الضخم . ذلك ان الاواني الصغيرة تُقَايَضُ بملئها شعيرا. أما الجرار الصغار فتبادل بنصف صاع (عشرة لترات) والجرار الكبرى بصاع كامل . وهكذا تجمع خالتاي ما يكفيهما مؤونة الشتاء ويطمئن أبي عليهما . ويفعل كما لو انه لم يدرك أن ابناءه سينتفعون من ذلك . لكن اسلوبه الذي به يساعد اختيْ زوجته في عملهما يدل دلالة واضحة على انه مهتم بنجاحه . فهو الذي يحتطب الحطب الغليظ ويعهد الى أمي وبيّة بحمل الطين وبتخلية بال خالتيّ من أعباء المشاغل المنزلية الصغيرة . ويوم الشيّ تراه يسهر دون ان يبدو عليه ، حتى يبقى الحطب الذي أودع ليلا في موقعه المختار . وعند الفجر تجده خالتاي على عين المكان ، ويشهد عملية اضرام النار . وحالما تنضج الأواني ، كنت ترى دوما حشدا من النساء والبنات يردن المساعدة على حملها ولكنهن لا يترددن في ان يسرقن بعضها ويضيع صواب خالتيّ في تلك الجلبة العظيمة. لكن أبي هنالك بالمرصاد ، وقد انتحى مكانا مجانبا فلا تعزب عنه كبيرة ولا صغيرة .

ولا تستغرق مقايضة الاواني وقتا طويلا . فبعد بضعة أيام يفرغ المنزل ، ويخبأ الشعير وتجدنا في سعة من العيش لدى خالتيّ .

وفعلا فإن عمل الصوف كمثل عمل النملة الا انه يتطلب مساحة كبيرة الى حد الافراط، فالنول مشدود افقيا على عصوين على مسافة قريبة جدا من الحائط. ويمكنه ان يظل كذلك طوال المدة التي نريد. وتمضي فيه خالتاي إن صح التعبير أوقاتهما الطائشة فتجلسان عندها وقد اسندتا ظهريهما الى الحائط. وتولجان خيوط اللحمة بين خيوط السداة وترصانها بمشاط من الحديد. وهو شغل لا يمنع مجاذبتهما اطراف الحديث. وعندما لا يكون النول قد نصب بعد ، تشتغل خالتاي أما بحلج الصوف المغسول أو بغزل السداة بواسطة الفلكة والمغزل .

نانا امرأة صَنَاع. فخيوط سداتها متينة وفي رقة الشعر . وهي تعرف كيف تنقل على النسيج جميع ما تصوره على الجرار من خطوط . أما خالتي فأكثر عصبية أمام الصوف منها امام الطين. ما أزال اسمع ضربات مشاطها ذي الدوي الاصم المتسارع والتوقفات المفاجئة والاستئنافات غير المتوقعة والسير المتقطع كأنه سير ماكنة عنيدة. وعندما كانت تتوقف فمعنى ذلك انها قد قطعت خيطا من خيوط السداة وانه يجب عقد طرفيه . نانا غير راضية ولكن اذا هي بالغت في اظهار ذلك ، فإن خالتي تنهض وتترك الميدان . فلا نعود نسمع آنذاك سوى ضربات مشاط نانا المتناغمة . ونوقن أن ما يتم انما هو عمل جيد . وغالبا ما تسهر نانا ، حتى تتقدم في عملها على بصيص نور شاحب ينبعث من لمبة بترول مدخّنة كريهة الرائحة . وكم مرّة اخذني النعاس بين خالتي وبيّة ، تهدهدني نقرات الممشاط الاليفة ؟

وعندما لا يكحل النوم منّا العيون كنّا أثناء عمل نانا نحكي الحكايات .

ينبغي ان اقول إن تلك الحكايات كانت تغريني كثيرا بالذهاب الى بيت خالتيّ . لم يكن ابي ولا أمي يقصّان علينا القصص ابدا . كان السهر معهما خاليا من كلّ لذة ومتعة . فما ان كانت الا حسابات ومشاريع ومناقشات لم اكن افهم منها شيئا ولم تكن تدخل الارتياح على احد. وأحيانا كانت ضروبا من النقد أو الاغتياب تجعلني أكره جارا أو قريبا. أما مع خالتي فقد كان الامر مختلفا . فقد كنا أنا وهي اثناء الحكايات مخلوقين آخرين . كانت تعرف كيف تختلق عالما خياليا ننتصب فوقه سادة . كنت اغْدو حكمِا وسندا لليتيم المسكين الذي يريد ان يتزوج أميرة ؛ كنت أشهد انتصار «مقيدش» الصغير وقد هزم الغولة. كنت ألقي الى سمع الحشايشي سراِ وهو يحاول ان يتجنب مكائد السلطان المتعطش الى الدم بردود حكيمة. اني لبعيد من جبيني ابويّ المهمومين العابسين وزفيرهما في ليالي الشتاء التي ليس لها من آخر . كانت الحكاية تسيل ذوبا من فم خالتي وكنت أعبّها عبّا . هكذا تعرفت على الاخلاق واحلام الخيال . رأيت الطيب والخبيث ، والقوي والضعيف ، والماكر والساذج . كانت خالتي قادرة على ان تضحكني أو أن تبكيني . صحيح اني لم أكن لأتعاطف عن طيبة خاطر مع مأساة عائلية حقيقية . كان مصير أبطالي يشغلني أكثر من مشاغل والدي . كلّ ذلك لأن خالتي كانت هي الاخرى ينطلي عليها الامر . ومن يسمعها تحكي يشعر أنها تؤمن بما تقول . كانت تضحك أو تبكي تماما مثل اختها . وعندما كانت النهاية حزينة أكثر من اللزوم ، كنا ننام ولنا نفس الشعور بالغم . وكنت اضمها اليّ في خوف . كان رأسها محشوا بالخرافات والاوهام . وسرعان ما اصبحت في مثل حسن علمها بأرواح الموتى ببغلتهم أو قربتهم ، وبصيحات المقتولين كل سنة ، وبطواف اشباح يعلنون عن حدوث الاوبئة . وعرفت

تحولات الحجل وطائر الحسون والقرد والبوم . وكانت مخيلتي تتقبل كل ذلك في لذة وانشراح . كنت استطيع سماع كل شيء وأنا مختبىء كما ينبغي تحت الأغطية بين بيّة وخالتي وقد احكم اغلاق الباب والبوابة منذ أن أرخى الليل سدوله على الكون . أما اذا صادف ان وضعت قدمي خارج البيت ، فكنت احس بشعر رأسي يقف ، كنت احسّ بقشعريرة فأجري كالمجنون او يسمرني الهلع على عين المكان . كنت ارى نفسي محفوفا ببعض الاشباح ، وكان يبدو لي اني اسمع اصواتا وخطى تلاحقني . أوه ! لكم دفعت غاليا ثمن الاستماع الى خالتي تحكي لي حكاياتها. فأنا حتى الان لم استطع ان اتخلص من بعض ما قد ينتابني من الرعب والهلع . فعبثا أحاول انأستمع إلى نداء العقل. لن أتغلب على ما أشعر به من النفور إزاءالموتى. ولن أجتاز أبدا مقبرة تيزي الكبرى ليلا وأنا هادىء الأعصاب تماما. فنعيب الطيور الليلية يبدو لي دوما حزينا محمّلا بالكآبة إن لم يكن بنذر الشؤم .

ومهما يكن من أمر ، فأنا مدين لخالتي بانها علمتني منذ زمن مبكر ان اسرح مع احلام الخيال ومحبة ان اخلق لنفسي عالما يناسبني، عالما من الأوهام انا الوحيد القادر على ولوجه .

# 6

اذكر دخولي الى المدرسة كما لو أنه تم يوم امس . عاد أبي ذات صباح من الجماعة وقد علت محياه مسحة خفيفة من الغموض والتأثر . كنت في ساحتنا المطيّنة بزبل البقر ، قرب كانون فوقه وعاء لبن . كانت امي قد عادت توا الى المنزل ، وكانت على وشك أن تأخذ قبضة من الملح وحفنة من الكسكسي لتعد لي فطور الصباح . على انه ينبغي أن أوضح اني لم اكن احظى بمثل ذلك الفطور الا في ظروف استثنائية . كان ينبغي لذلك تضافر عوامل عديدة : أولها أن يكون لدينا كسكسي ، ثم لبن ثم تحيّنُ الوقت، وخاصة انتظار غياب اختي الصغيرة لأنها ستطلب ، لو كانت حاضرة، نصيبها من النعمة الطارئة . وهو ما قد يضطرّ أمي الى ان تزيد في الحصة المشتركة وان تحرك شهيتنا دون ان تشبعها تماما . واذن ففي ذلك الصباح اجتمعت كافة تلك العوامل ، كنت متصدرا أمام وعاء الكسكسي بمفردي وعيناي مازال يثقلهما النعاس الا أن عصافير بطني مستيقظة تماما .

يا للأسف ! لا بدّ انه مقدر اني سأتعلم منذ سن مبكرة أن بعض الامور تقطع الشهية . وفعلا فعندما تكلم ابي طارت عني شهية الأكل كما طار عني النعاس في آن . لم يكن يوجد مثل ابي لترويع الناس .

قال لأمي : اسرعي ، اسرعي ، اغسليه كله ، يديه ووجهه ورجليه اتعتقدين أن الشيخ سيقبل مثل هذا القرد ؟

قالت أمي : ان قندورته ايضا وسخة . لعله ينبغي ان ننتظر يوم الغد. هكذا اغسلها مع برنسه .

ـــ وتقدّرون ان كنت فتحت اذني ام لا لهذا المقترح ؟

قال ابي : غدا تكون جميع الاماكن محجوزة. ثم يحسن أن لا يبدأ الدراسة بالتغيب . يقولون انهم صعاب ، «الروامى»، وليس لنا ولد سواه. على انه ليس ينبغي لنا الوصول متأخرين اليوم ، هيا بسرعة .

ونظفوني بسرعة ، ثم بعد خمس دقائق كنت وما ازال مذهولا ، حللت بفناء المدرسة الفسيح . وهي تعج بالتلاميذ عجا ... على مسافة مائة فرسخ من فطوري . اختي الصغرى تيتي وحدها هي التي احتفلت في اسرتنا بأن منحت نفسها وعاء الكسكسي باللبن وحمدت مثل ذلك اليوم، وخطته من بين ايام السعد . صدق من قال : مصائب قوم...

ان أول يوم لي في قاعة الدرس وأول اسبوع بل وحتى أول سنة ، قد تركت في ذهني آنطباعات قليلة جدا . وعبثا افتش بين ذكرياتي ، فلا اعثر على شيء واضح . كنا لنا معلمان ، كلاهما من بلاد القبايل : أحدهما سمين ، قصير منتفخ الأوداج ، ذو عينين صغيرتين ضاحكتين لا توحيان بأي رهبة . أما الاخر فنحيف شاحب اللون ، مائل قليلا الى الصمت ، بانفه الطويل وشفتيه الغليظتين ، ولكنه كان في دماثة الأول ولطفه . كان الاصغر وكان يشتغل بتدريس الفصل الثاني . كانا يلبسان بدلتين فرنسيتين

تحت برنس رفيع ناصع البياض. فقد بدأ لي ذلك اللباس مدة طويلة في منتهى الذوق والاناقة والترف . أما المعلمان ذاتهما، فما انفكا يمثلان بالنسبة اليّ والى يوم الناس هذا، دون أن املك لذلك ردا ، الصورة المزدوجة التي اتمثل من خلالها على حد سواء المعلم اصيل البلد والمدير ومساعده .

يحرجني كثيرا ان اقول ان كنت تلميذا نجيبا او خاملا . وان كنت تألمت كثيرا أو قليلا . على الاقل لم اكن احس بنفور من اني تلميذ . كان رفيقي عقلي الذي ظلّ حاميّ قد سبقني بسنة الى هذا الوضع الجديد . كان فخورا بأقدميّته ، وعرض على امي ان يفيدني من تجربته . كان كل صباح يناديني وينتظرني امام الباب ، وكنا نهبط معا بسرعة حتى المدرسة . وكان يعود بي على الساعة الحادية عشرة ، ووجهه يتهلل زهوا وحقّ له ان يفعل لأنه زهو مشروع في محله ، زهو يعكس شعور من قام بالواجب . وأحيانا كان يشاركني غدائي وكثيرا ما كانت تقدم اليه حفنة من التين تعوّد أن لا يرفضها شعورا منه بأنّه كسبها بعمله . والحقيقة اني اصبحت بفضله لدى معظم اترابنا من الصغار، وكانوا يخشون بطشه، حراما لا ينبغي مسّه بأي اذى . أما الكبار فكانوا يدعوننا وشأننا لأنه كان لنا من بينهم اخ له وكان في السنة الأولى (13) . وان انا ذكرت لك اني كنت جبانا رعديدا ووديعا بالطبع لا استدرج الى النزاع احدا ، وأن حيّنا كان يضم حوالي خمسة عشر تلميذا كثير منهم كبار وأن روح « الصف » (14)

13) هي السنة النهائية لأن العدّ عكسيّ (المعرّب)

14) (كذا بالعربية في الأصل الفرنسي) ومعناها التعصب لاسرة او حيّ أو ... (المعرّب) .

مستحكمة في قلوبنا بقدرما كانت مستحكمة لدى الكهول فهمت آنذاك لماذا لم اعدم مدافعين عني ، ولماذا لم يصادف الأبن الوحيد الذي كنت جميع المضايقات التي تنتظر الاطفال المدللين عادة في قاعة الدرس .

كنت اذهب الى المدرسة بدون سابق أفكار . فقط لمجرد أن جميع الاطفال كانوا يذهبون اليها . وكان افضل أوقات النهار عندي بلا منازع هو الساعة الحادية عشرة ، عندما كنا نصعد العقبة مبهوري الانفاس وجهتنا الكسكسي الذي ينتظرنا في بيتنا . كان ثمة ايضا مختلف الالعاب بطبيعة الحال ، ولكن لم يكن الواحد يحتاج الى الذهاب الى المدرسة حتى يلعب . وعرفت من بعد انه يمكن ان يقدم الى اطفال المدارس تعليم شائق ، وانه يمكن تعليم الاطفال وهم يلعبون وان ثمة مناهج للتنقيص من مجهود التلميذ لايقاظ انتباهه . وذلك لعمري امر ممكن . فلكم يقول الكبار من الأقوال المنمقة . اعتقد صريح الاعتقاد ان القبايلي الصغير البالغ من العمر سبع سنين في غنى عن ذلك . فهو شديد الانتباه أنفة وعزة نفس . حسبه ان يجتنب ضربات المعلم وسخريات جاره الذي يعرف القراءة . ثم يستيقظ اهتمامه بطبيعة الحال بعد ذلك فيعوض الخوف . آنذاك يبدأ الفهم . ذلك ما حصل لي فيما أظن . أما الذين لا يفهمون ، فيتعودون الضرب فلا يخشونه بعد ويضعون كبرياءهم خارج قاعة الدرس . فهم اما لاعبون مهرة أو « مشاغبون » مهرة . حتى اذا خرجنا من القسم لم نكن نفكر البتة في أن نتفاخر بما حصلنا . ان رئيسنا على الالعاب في الحي ولد اقرع رفضوا قبوله في المدرسة . لم يكن يعتقد انه دوننا منزلة . وكان محقا في ذلك . فلم يكن اهلونا ومعلمونا يولون ما كنا نقوم به في المدرسة كبير أهمية . لذلك كانت الالعاب شغلنا الشاغل . كنا وضعنا دورة من الالعاب تعود تقريبا كل سنة نبدأها في اكتوبر بالكرّيات أو البلوط أو الازرار — كنا آنذاك

نأتي على جميع القمصان والجمازات والصدريات القديمة . ثم كان يحين دور الخذاريف : من المنتفخة المتهادية التي نشتريها من المدينة ومن الخذاريف القبايلية الطويلة التي يصنعها آباؤنا والتي تتهادى جذلة يصحبها صوت حاد . وفي فصل الصيف كنا نصنع الطبنجات من الخشب النادر الوجود نذهب في طلبه عند حافة النهر . ثم كنا نمر الى العجلات فإلى الشبّابات . ان الاخيرة هي التي تركت لي ذكرى لا تمحى أبدا .

ففي عشية ذات يوم عدت الى البيت ، بعد الساعة الرابعة ، وقد كنت امضيت سائر اليوم مع بعض الاقران خارج القرية ، وبين اصابعي ناي اعالجه ، وأنا احاول بكل ما أوتيت من مهارة ان استعيد لحنا سمعته يومها . كان أبي عند عتبة الباب يفك رباط حذائه . كان عائدا توا من الحقل . وكانت أمي قد بحثت عني عبثا لأقضي لها بعض الشؤون . ولا شك انها شكت اليه طول غيابي عن المنزل .

قال أبي : هو ذا يعود لا خوف عليك . ومعه ناي ! ما شاء الله ، لئن لم يتعلم شيئا في المدرسة ، فهو لا يضيع وقته مع اقرانه .

وقال أبي : آه ، لم اعد استغرب البتة ان يشتكي منك معلمك . ادرك الآن جيدا انك ولد طائش . وإذا لم يرقّك من قسم ألى آخر فبسبب كسلك . قد قال لي ذلك .

وفعلا كانت تلك سنتي الثانية بالمدرسة وكنت دوما في نفس الفصل . باغتني هذا الاعلان غير المنتظر مباغتة . الظاهر ان المعلم كان تحدث في شأني إلى ابي انا الذي كنت اعتقد أني ضُلّ بن ضُلّ بين حوالي خمسين من رفاقي في القسم . وها هو ذا يتفطن الى عملي ، ويعرفني أنا بالخصوص ، ويعرف ابي ! لقد كان اذن يعرف جميع التلاميذ ! لا شك انه كان يحب النجباء منهم ويكره الكسالى . ومع ذلك لم تكن توجد أية قرينة

ظاهرة تدل على انه يميز بيننا . عبثا فكرت واطلت التفكير ؛ لم اقع على شيء . لا يهم . كان ينبغي ان ارضخ لحكم الامر الواقع . لقد قال لابي اني تلميذ كسول . وكان ابي يظن انه آلمني بما خاطبني به من لهجة صارمة وواقع الامر اني كنت شبه سعيد . اذا لاحظت اهتمامه بما كنت افعل وانه كان مغتما لرؤيتي ضمن المتأخرين وانه كان يشارك المعلم ذلك الغم . وقد جعلني ذلك التوبيخ آخذ عملي مأخذ الجد . كنت ابالغ في تقدير قيمتي . والحقيقة ان ابي كان غاضبا لتسكعي اكثر مما كان غاضبا لرتبتي الوضيعة في المدرسة . انا واثق كل الثقة ان المعلم انّما تحدث الى ابي عني من باب الصدفة المحض خلال محادثة عادية وبضرب من توارد الخواطر . لا يهم ! إن ذلك الموقف حسم امر مستقبلي في المدرسة . فمنذ ذلك اليوم اصبحت تلميذا نجيبا بدون مجهود يذكر .

وكان ذلك ، الدور الوحيد الذي يناسبني . كلما خضنا في التخصص والتوجيه المهني في المدرسة لا أملك ان امسك عن الابتسام وعن ان افكر في الطريقة التي تخصصت بها انا وأقراني . كان الامر بسيطا جدا . كان ثمة المشاغبون وكانوا سادة المدرسة . وكان اعجابنا ينصرف اليهم دون تحفظ . وكان ثمة المتهالكون على اللعب من ذوي الاحلام الطائشة والصحة الجيّدة الصاخبون اللامبالون والشعبيون . أما الوديعون الجبناء وهما يستويان بالضرورة فتبقى لهم المتع السامية التي توفرها الدراسة ، والحصول على افضل الرتب . وهي متع يزيدها في نظرهم سموا أنها الوحيدة التي كان يمكنهم ان ينشدوها . واذ كنت مسالما منذ كنت ، لم أكن استطيع الترشح للصنف الأول ولا للثاني واذن فقد اصبحت باتفاق جميع اقراني تلميذا نجيبا . وتعلق عدد كبير منهم بأن أكون الأول في الصف اكثر مما تعلقت لأن هيبة الصف كانت تدخل في الحساب .

واذن فقد كنت منذ الدروس الأولية اعمل بجد لا يكدّره مكدر بالرغم من اهلي وكانوا يقابلون ما كنت احرزه من تقدم بمنتهى قلة الاكتراث . فهل سنحت الفرصة يوما لمعلمي وقد لاحظ ذلك التحسن ان يتحدث عنه الى ابي ؟ لا علم لي بذلك. فهل يمكن لارباب الاسر الذين يقضون وقتهم في محاولة اشباع البطون الصغيرة ان يهتموا ايضا بالأدمغة الصغيرة ؟

# 7

لقد كان أبي يجد فعلا كثيرا من العناء والمشقة في اعالة اسرته . ولا اعدو الحقيقة ان قلت إن الفائدة الوحيدة البارزة من إدخالي المدرسة كانت غيابي المستمر عن البيت وكان يحد مما كنت آكل من التين والكسكسي . اذكر جيدا في هذا الشأن تشكيات امي خلال العطلة الصيفية ونفاد صبرها واستعجالها نهايتها . كان ينبغي لها هي كثير من التدبير ولأبي أن يبذل كثيرا من الكد والعرق كي نجد ما نتبلغ به حتى نهاية كل شهر .

لم يكن ابنا شعبان ورثا ميراثا كبيرا ، ولا كان لهما رأس مال كبير . وعندما كنا نحيا حياة مشتركة كانا يكدان ويجدّان من بداية السنة الى نهايتها . وكانا يفلحان في الظهور بمظهر لائق وفي جعل الناس يعتقدون انهم في سعة من العيش . وكانت جدتي تدبر شؤون البيت في اعتداد بالنفس كبير . كانت تأمر فتطاع .

ثم توفيت فجأة في نفس تلك السنة التي دخلت فيها المدرسة . كنت

لا أكاد اعرف معنى الموت ، بكتها كنتاها بكاء فاترا وكانتا تفكران أنهما ستكونان بدونها اكثر حرية . ودفنها ابناها على افضل حال قدروا عليها . فسهر حولها كامل الليل حوالي ثلاثين من «الخوني» يرتلون شتى الأناشيد الدينية حتى الصباح . وذبحا خروفا ووزعا الكسكسي على جميع فقراء القرية. ورافقها حوالي اثنا عشر شيخا صالحا. كان ثمّة جميع مظاهر الأبهة. كان شيوخ القرية من رجال ونساء يكادون يحسدونها على ذلك الناموس ويتمنون علنا ان يرسل بهم أبناؤهم الى عالم الخلد على ذلك النحو . وهو ما كان يلذ لأهلي سماعه . وكان آخرون يرثون الميتة بأنها كانت عماد البيت الحقيقي . ولم البث ان تبينت ذلك عشية يوم الدفن . تخاصمت امي وحليمة على مخلّفات جدتي . واستغربت ذلك الا اني لاحظت أن ابي وعمي ارتضيا تلك المناقشة وساهما فيها كل يدافع عن زوجته .

وبعد ذلك بأيام كان لابد من ان يعهد بإدارة المنزل الى احدى المرأتين . فترشحت لها مترشحتان . وحيكت الدسائس فكانت الجارات يحرضن امي تارة وزوجة عمي تارة اخرى . وكانت اخوات هذه وتلك يقدمن ايضا رفدهن ونصائحهن . وأخيرا ، تصرف أبي تصرف الاخ الوديع لأنه الاخ الاصغر فعهد بتلك المهمة الى زوجة عمي احتراما لأخيه . وقد وقع هذا الصنيع من قلب عمي موقعا حسنا ، الا انه لم يؤثر في زوجته . ولم تذعن امي ولا استسلمت . كانت تريد القسمة . على ان حليمة لم ترغب في غير ذلك . اوه ! لم يطل بهما الامر كثيرا . فلم تلبث زوجة عمي ان سرقت ، ولم تلبث أمي أن تفطنت الى ذلك واحاطت به ابي علما. وما لبث هو نفسه ان ضبطها متلبسة ويدها في الغرارة (15) وكانت

15) تعبير فرنسي خاص بمن يمسك به متلبسا بسرقته « ويده في الغرارة » . (المعرب) .

الغرارة والحالة هذه جرة نحفظ فيها قديد العيد . كانت حليمة تمسك بقطعة كبيرة منه في يدها وكانت تلك القطعة ستأخذ وجهة اخرى غير وجهة القدر العائلية . وقامت القيامة . وقام الدليل على ان الجميع كانوا يريدون في قرارة انفسهم القسمة وانهم ملّوا الحياة المشتركة في ذلك البيت الذي انتفت منه الثقة . كان اذن صحيحا كل الصحة ان جدتي كانت عماد الجماعة بما أن احدهما قد زال تقريبا في نفس الوقت الذي زال فيه الآخر .

ما الذي كان يمكن قسمته ؟ لا شيء يذكر . كان ثمة اولا مسكن . أما عمي ، وقد ترك له ابي الخيار ، كعادته احتراما، فآستولى على البيت الكبير بحجرة مؤونته وما يحتويه من ايكوفان ضخمة وجرار مختلفة . كان يمكن للواحد ان يؤوي تحت بيت المؤونة ثورين وحمارا وخروفا . وقد بكت امي من الغيظ . وكان نصيبنا البيتان الصغيران المقابلان واضطررنا الى جمعهما في غرفة وحيدة في كبر الأولى . وقسمنا الفناء بحبل . فكان لكل من الطرفين فضاء كاف الا ان عرضه قليل جدا . ثم اقتسما غرس تين ثم غرس زيتون بأكثر ما يمكن من العدل ، طارحين من هنا ، زائدين من هناك ، مانحين شجرة ضخمة من شجر التين او الزيتون موجودة في هذه القطعة لصاحب القطعة الأخرى ، شابكين علامات الحدود بعضها ببعض يركزانها تارة وينزعانها تارة اخرى، وذلك مدة اسبوع . واخيرا اقتسما المواعين ثم الدواب والديون .

خلال ذلك الأسبوع بأكمله كانت الزوجتان منهمكتين. كان السرور يقرأ على وجهيهما. كانتا تتقبلان الزيارات بآستمرار. كانت الجارات يتوافدن عندهما متمنيات لهما بيتا هنيئا .

قلن لأمي : هنيئا لك . فلك منزلك الخاص بكَ انت دون سواك .

ويمكنك ان تتحملي جميع ضروب الفاقة ، ان تستفّي التراب ! برّه برّه، كانت أملك امرأة صالحة لم تخلف لك الّا دعاء الخير . حفظ الله لك كل عزيز وترد أمي قائلة : ان شاء الله ازورك قريبا في مناسبة سعيدة . وتجري عبارات الادب والمجاملة مجراها .

وفي تلك الاثناء كان الاخوان وحدهما هما اللذان ظلا كئيبين. كان يبدو لهما انهما يحسّان بعد على عاتقيهما المنفصلين بأن وزن حمل كل منهما قد تضاعف . كانا يستشعران أن المستقبل لا يخبىء لهما الا الشر وأنهما قد افتقرا وان كلا منهما قد فقد نصف قواه . وفي الايام الأولى التي تلت القسمة طاب لهما ان يتزاوروا ، يدعو الواحد الاخر . كان عمي يدعوني الى كل غداء وعشاء وحتى حليمة تفطنت الى انها تحاول ان تدلل فورولو . الآن وقد وقع المحذور ، لكأن الجميع نادمون قليلا . الا انهم ليسوا بنادمين عليه الا بقدرما هو بالذات امر لا رجعة فيه . قال «جيرونت»لـ «سكابان» : «قد عفوت عنك بشرط ان تموت (16)». وتباعد ما بين الدعوة والدعوة وعادت الضغائن القديمة الى الظهور على كل شيء وانضافت اليها ضغائن اخرى مصدرها جيراننا في الداخل والخارج ، بغض النظر عن اسباب الغيرة.

كان على رئيسي العائلتين ان يكدا ويجدّا ليعولا اسرتيهما . ولئن لم يكن الواحد يرجو للآخر الفقر فإنهما كانا عاجزين عن ان يمد الواحد للآخر يد المساعدة . أما الأمان فقد كان امرهما مختلفا . فبحكم انعدام صلة القرابة بين الواحدة والاخرى ، لم تقم بينهما اية علاقة تقدير البتة . وما لبثتا ان اصبحتا متعاديتين . انهمكت كلّ منهما في الشغل بكل قواها تساعد

16) من مسرحية لموليار شهيرة « مخادعات سكابان » (المعرّب).

الزوج وتربّي الاطفال باذلة كل ما في وسعها شادة كل العزائم يحدوها غرض واحد أكبر الا وهو ان تبين لجميع الناس انها لم تخسر من جراء القسمة شيئا وأنها أسعد حالا مما كانت وخاصة أسعد من الأخرى .

كان ابي فلاحا خشنا ، يقتلع الاشجار اليابسة ولا يفتأ يستصلح الارض ويغرسها اشجارا . وفي ظرف سنوات معدودات تغير مظهر قطع الارض التي في حوزتنا . وفضلا عن ذلك كان يتعهد تربية زوج من الثيران وحمارا وعنزة ، وخروفين . لم يكن الثوران ملكا لنا . كان احد الاثرياء يعهد بهما الينا في فصل الربيع وكنا نعلفهما ونقدر بهما على حراثة ممتلكاتنا . وفي حوالي اكتوبر من كل سنة كنا نبيعهما فكان يعود لنا منهما ثلث الربح . أما الحمار فكان ملكا لنا ، هو والخروفان والعنز . كان الحمار يوفر لنا كثيرا من الخدمات . كنا نحتمل على ظهره الحطب وكيس الحشائش من الحَقل . وكان ينقل اليه الزبل . وكان يحمل الى المدينة احمال العنب والتين ويعود منها بالشعير الى الاسرة ، او في موسم الخضار بالفلفل والكوسى والبطاطا وكانت أمي تبادل جاراتها ملء الصحن منها ، مقابل ملء الصحن من الحبوب .

كنا نشتري الخروفين ولا يزالان حملين حتى اذا اصبحا كبيرين سمينين ، قبيل العيد بعنا احدهما فكان يسدد عادة رأس المال الموظف في كليهما . وفي كل سنة كان ابي فخورا بأن يذبح خروفا اكراما للنبي من دون ان يكون قد انفق شيئا .

وكانت العنزة فضلا عما تدره من لبن تضع بانتظام جديا أو جديين ، يبيعهما ابي في كثير الابتهاج . ويصادف احيانا أن نذبح واحدا ونأكله . وكان من السهل الوقوع على تعلّة لذبحه . كانت امي مصابة بمرضين أو ثلاثة امراض كثيرا ما تتحدث عنهما الا انه لا يمكن معاينتهما البتة .

وبمحض الصدفة ، أشار عليها درويش بأن تذبح جديا لونه في لون جدينا بالذات . وإذا لم تكن أمي هي المريضة فهو ابي ، وقد اصابته ضربة شمس . الا ان الجميع يعلمون ان ذلك المرض مرده الجن وانهم يلازمون المريض لا يفارقونه حتى رؤيتهم سيلان الدم من جدي ، في لون جدينا .

أما الشخصية البارزة الثالثة التي كان يمكنها التسبب في ذبح الجدي المسكين فهو الابن الاوحد . أما الاخوات فان جنّهن لم يكونوا يجرؤون على اكثر من ان يطلبوا بيضا . وكنا نتوسل الى ابي الاسبوع بأكمله حتى يوافق على ان يشتري لنا لحما من السوق مرة كل شهرين او ثلاثة . الا انه كان دوما مستعدا لذبح الجدي .

على انه كان في هذا شبيها باغلب الفلاحين . فاللحم مادة نادرة في بيوتنا . او على الأصح لا ! كان الكسكسي هو طعام اهل بلدنا الوحيد . وفعلا فلا يمكن ان نعتد بمغرفة الحمص او الفول التي نضعها في القدر مع نبذة من الشحم وثلاثة لترات من الماء لاعداد المرق ولا بملعقة الزيت نضيفها الى كل طعام ، ولا قبضة التين نقضمها في الاثناء من حين لآخر . اذا استثنينا هذا ، كان بمقدورنا ان نخضر لثاتنا بجميع الحشائش الصالحة للأكل مما كنا نصادفه في الحقول . ولنا ايضا الحرية في ملء بطوننا من جميع الجداول الصافية التي كانت تتدحرج من المنحدر ويمكننا ان نأكل جميع ما تحتمله الاضراس من حبات البرقوق والتفاح والاجاص ولمّا تزل حامضة ، على انها من الباكورات . نحن جبليون خشنون . كثيرا ما كان يتردد ذلك على مسامعنا . لعلها مسألة وراثة . الا انها بالتأكيد مسألة انتخاب ... طبيعي . فإذا ولد بيننا مولود هزيل لم يمكنه ان يحتمل نظام حياتنا و سرعان ما يهلك. أما اذا ولد بيننا مولود قوي البنية، فانه يعيش ويقاوم . ربما اصبح هزيلا بعد ذلك . المهم انه يتكيّف .

ويعود بنا الحديث الى آل منراد . كان الاب رمضان يفلح في كثير من التبصر في ان يضمن لاهل بيته كل يوم نصيبهم من الكسكسي الخالي من «الزهومة» (17). وعندما كانت اعمال الحقل تقف الى حين ، طوال المدة التي تمتد مثلا بين اوان حصاد الكلا والحصاد او بين الحصاد والدراس ، كان ينقلب الى صانع يعمل اجيرا مياوما ، مساعدا لبنائين اثنين كانا يشيدان البناءات للاغنياء . وعندما شيدوا في القرية اول طاحونة للزيت تعمل بمكبس هيدروليكي وبئر ومضخة عمل ابي فيها اثنين وعشرين يوما . وقد تركت تلك الايام هي الأخرى ذكراها .

بدأت الاشغال في شهر جوان فيما اظن . كنا مازلنا بالمدرسة . كانت الحضيرة قبالة منزلنا بالضبط على بعد حوالي مائة متر . وكان ثمة فضلا عن ابي ، ابن عمنا قاسي — اب سعيد — وعرب — اب عاشور — ورفيق آخر من رفاق الدراسة . منذ اليوم الاول ، عرض علينا سعيد عند الحادية عشرة ان نذهب لرؤية آبائنا . وقبلت وقبل عاشور . لقد ادركنا ما اراده سعيد ادراك اللبيب بالاشارة يفهم . افليس على الساعة الحادية عشرة يوقف العرف العمل لتناول الغداء ؟ انه رجل متعلم يتباهى بانه يتشبه بالفرنسيين في بعض عاداتهم . فهو يأكل في أوقات معلومة ثابتة وكذلك صناعه . ووقعنا عليهم في نفس الوقت الذي وقعنا فيه على الاطباق في دقة تدعو إلى الثناء . ضاق كل اب بآبنه ضيقا شديدا . ولكن العرف رجل كريم . امرنا بالجلوس . فجلسنا ورؤوسنا مطأطئة . اكلنا رغم ذلك . اكلنا أولا مرقا لذيذا بالبطاطا وأعطي كلّ منا قطعة كبيرة من البشماط . ثم

17) لفظ يطلق في الدارجة التونسية على ما يصاحب الطعام من لحم وشحم (المعرّب) .

أكلنا الكسكسي المصنوع من الدقيق الابيض مع بعض اللحم . أمام مثل هذه الخيرات ظهر الحبور على الخجل الذي تملكنا في البداية . انه الفرح الحيواني فرح بطوننا النهمة . وما ان امتلأت حتى ولينا هاربين وجبيننا يندى من العرق ، دون أن نشكر لأحد ، حاملين في ايدينا ما تبقى من اللحم والبشماط . ثم ثاب الينا رشدنا بعيد ذلك بمسافة فأخذنا نقيّم حظوظنا ونقارن بين انصبائنا . وتفارقنا بعد ان هنّأنا سعيدا على فكرته الطيبة . كانت تهانينا والحق يقال فاترة تنقصها الحرراة . وقبلها سعيد في غير كبير اقتناع . مثلت امام عيني كلّ من أولئك صورة ابيه الكالحة في شيء من الاسى : ماذا سيقول له مساء ؟

ومثلما كنت اتوقع ، لم يكن ابي راضيا عني . لم يلح كثيرا حتى لا يؤلمني. وعدني بأن يأتيني كل مساء بأوفر قسط من نصيبه من تلك المآكل الفاخرة . وكنت واثقا من نفسي وأنا اقرر ان لا أذهب لرؤيته في الحضيرة ثانية البتة .

وفي الغد ، التقينا بالمدرسة فلم يرد اي من الاشقياء الثلاثة ان يلمح الى ما حصل له البارحة . كيف لقي كل من سعيد وعاشور اباه ؟ لم اجرؤ ان اطرح عليهما السؤال . على انهما لم يتعودا على ان يدلّلا . وفي الحادية عشرة تجنب بعضنا بعضا وهرع كل واحد ليأكل نصيبه من كسكسي الشعير . ذلك ما كان ينبغي ان نفعل كل يوم . وذلك ما كنا سنفعله بالتأكيد لولا مرقة البطاطا اللعينة تلك . كانت ذكراها لا تنفك تلاحقنا . كان مذاقها في كل حين بين اضراسنا ولم تكن بقية الطعام تمر بخاطرنا الا بعد ذلك ، حتى تطيل من احلام يقظتنا .

وبعد ذلك بيومين لم يطق سعيد صبرا فاقترب مني اثناء فترة الاستراحة وبدون مقدمات شرع يحدثني عن المرقة . كان ريقنا يتحلب لها واتفقت

تقديراتنا اسلنا ريق مستمعينا في افواههم . بما ان الامر في عداد الماضي ، لقد كان لنا ان نتحدث عنها . لم يكن لي ولا كان له من الشجاعة ما يجعلنا نخطّط للمستقبل . فمن منا سيجازف بأن يقترح زيارة ثانية الى الحضيرة . كنت نهما ولكن اعتقد جيّدا ان سعيدا كان اكثر مني نهما وشراهة . قبل ان يراني كان ذهب يجس النبض من عاشور . فابدى الاخير كثيرا من التحفظ ولعله كان يحمل ذكرى قاسية جدا عن التأديب الذي عقب مشروعنا الأول . لم يكن الاعتماد عليه اما انا فجميع الامال معقودة عليّ . « خدمني » سعيد كامل فترة الاستراحة . وعلى الساعة الحادية عشرة تسلل بين حشد التلاميذ حتى وصل اليّ ولم يفارقني قيد انملة.

ووصلنا الى مفترق الطرق . توقفت عن المسير. وبحركة غريزية رأيت الى جهة المعصرة . كان سعيد قد اتى قبلي نفس الحركة التي اتيت . ادار رأسه فتلاقت منا الابصار وتفاهمت واخذ بيدي وعدونا كالمجانين نحو العملة . ولم نثب الى رشدنا الا وقد اصبحنا على مسافة عشرة امتار من الحضيرة . وافزعتنا جرأتنا فحاولنا ان نختبىء وراء كومة من التبن . لكن فات الآوان ! . لقد رأونا . سألنا الأب قاسي غاضبا عما نفعل هنالك وصاح فينا ان نولي من حيث اتينا. انطلق سعيد كالسهم صوب المنزل. اما ابي فترك عمله واتجه نحوي في هدوء وسكينة وطلب مني أن لا آتي حركة. تسمرت في مكاني وقد استولى عليّ الخجل. التحق بي ووضع يده الغليظة الملطخة بالملاط على رأسي قائلا:

دعه ينصرف . اذهب انت وَاجلس بجانب الاب قاسي . ستأكل اليوم مكاني . أما انا فسأصعد الى المنزل كي استريح قليلا فلست بجائع اليوم .

كان ذلك الغداء تحت انظار اولئك الرجال المليئة بالاحتقار بالنسبة اليّ قطعة من العذاب .

كان قاسي وعرب يسخران من اولئك الذين لا يعرفون كيف يربون اطفالهم . كان التعريض مباشرا وكان وجهي يتقلب بين الحمرة والصفرة . كنت احدث نفسي حتى اخفف من ذنبي ان الي لم يكن جائعا . ولكن كان علي ان اثوب الى رشدي لأنني عندما عدت الى المنزل ، وجدت بين يديه صحني الصغير المصنوع من الفخار المحلى بمثلثات سوداء وحمراء . كان فرغ من اكل نصيبي من الكسكسي الاسمر . في ذلك اليوم عاد الى العمل والبطن منه نصف فارغ لكنه نقش في قلب ابنه الى الابد مدى ما يكنه له من رقة وحنان .

# 8

أدرك الآن جيدا لماذا كانت امي وخالتي حليمة تستعجلان ان تصبحا ربتي منزل وتستويان في ذلك . لم تكن تفلت عن حسابهما صغيرة ولا كبيرة .

أما بالنسبة الى امي ، فالامر واضح جلي . فزوجها هو الاصغر ، واذن فهو لا يجني من الشركة الا سيئاتها . فهو اصغر من اخيه واصلب عودا . وهو الذي يعمل . وسيعمل بمزيد من الشجاعة عندما يكون ذلك لصالحه الخاص . أما هي نفسها فتزعم انها اكثر قناعة من حليمة . مما لا شك فيه ان ابناءها ، لأنهم اصغر من ابناء عمهم ، لا يأكلون بقدر ما يأكلون . فالغنم كل الغنم في اعتزالهم .

وتحزر حليمة في شيء من الازدراء هذه المحاجّة الحقيرة . لئن كان رمضان هو الذي يعمل فان لونيس هو الذي له صلات مع الناس طيبة واصحاب يمكن ان يمدوا اليه يد العون والمساعدة . فما التأم جمع قط الا وكان حاضرا . ان زوجها لهو رجل « عاقل » . ثم لا شيء يدل البتة انه لن

يعالج آلة الفلاحة في مثل حسن معالجة اخيه لها . وهي تعرف انها ستساعده باذلة اقصى ما في وسعها . وانها ستحل محله متى دعت الضرورة الى ذلك . وهي ان فعلت ذلك فإنما تفعله لبناتها لا غير . على ان بناتها انفسهن قد كبرن . فإن كتب لهن الزواج يوما فان المهر لن يمتلكه غير لونيس . وان ظللن في المنزل فلن يعدمن عملا .

وكانت جوهر ، وهي البنت البكر ، في العشرين من عمرها آوان القسمة ؛ هي فتاة نحيفة القد عصبية ، لها عينان تتقدان خبثا ومكرا ، هي قطة صغيرة تخمش وتعض ، وهي قادرة على أن تنهض بشؤون البيت بمفردها . هي عدو امي اللدود ، تتجسس عليها وتغتابها .

أما ملخير ، وكانت اصغر منها بقليل ، فكانت سمينة عنيدة ولها بعض من ملامح ابي ونصيب وافر من طبع امها . ولونيس موقن انها لن تتزوج ابدا . فهي تستجلب على العائلة شتى انواع السخرية وتتسبب في خصومات يومية . وقد صممت حليمة على تدريبها على صناعة الفخار وعمل الصوف . وستفلح ملخير في ذلك ذات يوم رغم سخريات ابي وغيرة امي .

أما سمينة فكانت من انداد اختي بيّة ، بكرتنا في الاسرة . ولذلك فهما ابدا متنافستان . فتراهما تحاكيان النزاعات التي تنشب بين اميهما محكاة هي غاية في الشبه والاتفاق . وهما بارومتران لا يخطئان البتة . وأما انا فاتّهم اختي بيّة بانها كانت تثأر لجبن امي من جبن سمينة . ذلك ان سمينة تنتمي الى ذلك الصنف من الناس الذين ليس لهم الا اللسان يقنعونك به انهم من الشجعان . ولها عينان واسعتان وفم عريض جدا كأنه خلق للثرثرة . وفي صوتها غنة غليظة حتى لكأنه صوت غلام . وتتركها بيّة الصموتة المطوية على نفسها ترغي وتزبد الى حين تحكم قبضتها عليها فتؤدبها تأديبا .

وتنهي سمينة تهديداتها بين الدموع والمخاط ، ووشاحها على الارض وشعرها منتشر على وجهها .

ان شبحة اصغر بنات عمي ، الا انها اكبر سنا من اختي تيتي . ولهذه الطفلة المسكينة وجه منزوف . مازلت اذكر شفتيها المغضنتين وعينيها الصفزاوين وخديها المنتفخين المرتخيين . كانوا يستهينون بها جميعا . يأخذون عليها انها موجودة وربما انها تتشبث بأسباب الحياة . ورغم ذلك فهي ذكية لأنها ، ومن دون ان يعتني بها احد ، تعلمت كيف تعالج الطين احسن مما تفعل اختها ملخير. انها الوحيدة التي لا تكرهها امي ، لان شبحة تعلقت بي. ان قلبها الصغير اللطيف المستسلم لم يفهم ما تكنه امها لفورولو من الكراهية ولا انصت اليه. وقد توفيت عزيزتي شبحة منذ زمن بعيد الا ان ذكراها ظلت حية في نفسي . كانت لي اول صديقة .

عندما تمّت القسمة ، اصبحت حليمة شديدة مع نفسها ومع بناتها . كانت تريد ان تصبح ثرية فثارت على فقرها . كانت امرأة جد ونشاط . ولم تكن الوساوس توقفها البتة .

كان المنطلق واحدا بالنسبة الى الاخوين . فلكل منهما غرس تين وغرس زيتون .. وعليه دين صغير واطفال ينبغي تربيتهم.

وقد ارادت حليمة ان تظهر تفوقها منذ اول شتاء ، فجعلت لونيس يتعهّد بأن «يشدّ» غرسي زيتون على ملك ابن عم له غني . وهي ممارسة دارجة عندنا وتتمثل في ان يعهد اليك المالك بالحقل الفلاني مع الشجر الفلاني فتحرسه وتجني الزيتون وتطحنه ويتسلمه المالك زيتا . ان طاقة انتاج المنطقة معروفة بكثير من الدقة وكذلك مردود الزيتون ونوع الزيت . ولا مجال للخطأ في ذلك . وتبرم الصفقة على نحوين اثنين : فإما ان يلتزم الواحد بأن يقدم الى الفلاح صاحب الارض كمية من الزيت محددة

سلفا . وفي هذه الحالة يمكن للفلاح إذا كانَ لئيما ان يجر عامله الى الافلاس . فكثيرا ما يحدث ان واحدا من اولئك التعساء وابناؤه يجهدون انفسهم بعدما تكبدوه من عناء ومشقة وقد تخلّد بذمتهم دين هو ثمن الديكالترين من الزيت الذين تعذر عليهم تقديمهما . أما في الحالة الثانية فكان الملاك يختص بحصة مِن المحصولِ هي الثلثان عادة . والذي قد يغش آنذاك هو العامل . الا انك تراهم يحرصون على ان لا يعهدوا اليه الا بغراسات الزيتون النائية او التي ليس لها كبير قيمة. ثم لا يختارون الا الاقارب وهم الذين ينبغي ان ينتفعوا بوجه من الوجوه من المحصول ان قليلا وان كثيرا . كما يمكن ايضا تسليم غراسات الزيتون ذات المحصول الجيد لكن لمدة محدودة هي تلك التي تسبق النفض حتى اذا نضج حب الزيتون كان جنيه يسيرا . وينبغي ان يكون الانسان مجنونا حتى يقاسم الناس محصوله .

ومن البديهي ان « العمالن » (18) — اي العاملين ينتدبون من بين اولئك الذين لا يترددون في ارسال نسائهم وبناتهم لجني الزيتون في أماكن اخرى غير حقولهم . ولم تكن حليمة لتجرأ مدة حياة جدتي على ان تتصرف على ذلك النحو .

ان جميع ضروب الحيرة والتردد التي قد تخامر لونيس تندثر امام اليقين بالربح . و « شدّ » غرسي الزيتون مقابل ثلثي الزيت — ثلثين عليه ان يسلمهما — . فهو يتعامل مع قريب . وانصرف اهتمام ابناء عمومتنا عن ابي وبدأوا وكأنهم يريدون مساعدة عمي. واجترت امي غيرتها، وزاد ابي من استصلاحه للارض . وبينما كانت فاطمة وبيّة تترصّدان ان صح التعبير

18) كذا في النص الاصلي الفرنسي (المعرّب) .

زياتيننا القليلة ، وتلتقطان اصغر حبة زيتون تسقط منها وهي طائرة ، عائدتين بمشقة وعناء ، احيانا بقفة واحيانا بنصفها ، كانت حليمة وبناتها يرهقهن فرط العمل. فمنذ مطلع الفجر كنا نسمع جلبتهن خاصة ايام الريح . هي ذا الام كأنها ضابط في ساحة الوغى ، وهي توزع الادوار دونما تردد : « ستذهب معها جوهر ، ينبغي ان تمرا على كل مكان وأن تبحثا في تخوم الحقل عن حبات الزيتون الطائشة بين العيص او في قعر الوهاد . ففي حبات الزيتون الضائعة ، يمكن ربح « العمالن » . فليس للغني من الوقت حتى يتفرغ لذلك ولا يمكنه تقديرها .

ــ افتحي عينيك ، مليا ابنتي ؛ فانما الغنم كل الغنم لنا .

ولا تحتاج جوهر الى مزيد من التأكيد . فالوهاد تشكل عادة حدا فاصلا . كيف يمكنك تمييز زيتونك من زيتون جارك ؟ انه قانون الحيازة . ان جوهر وحليمة دوما اول من يكون في المراكز الاستراتيجية؛ تنظفان جميع منابت العشب وجميع مجاري السيول . وتنسلخ الايدي قليلا وهي تحتك بالعوسج ، لكن الفرح في القلوب . يمكنك ان تسرق جارك وأنت مطمئن الخاطر.

وتعمل ملخير وسمينة معا . فتذهبان الى غرس الزيتون الآخر، بنفس التعليمات . ولمّا كانت حليمة لا تثق بنفسها كثيرا ، فانها كانت ترسلهما دوما الى المكان الذي نظفته بالامس بكل عناية . ثم كانت اربعتهن يعدن مع حب الزيتون بالحطب اليابس . ولم تلبث حليمة ان اصبح لها اعظم كومة حطب في الحي . وننظر اليها جميعا في شيء من الحسد.

وكل صباح ، قبل الانصراف الى العمل ، يسخن فطور اليوم ــ نصف

من الكسكسي ونصف من البلبول (19) — في جفنة كبيرة من الفخار الاحمر . ثم يقدم للأكل مطقطقا يتصاعد منه البخار في نفس الطبق . ونتجمع حوله لنزدرده بلهفة الجائع وعجلة المستعجل . ثم يوزع التين توزيعا ليس دون ذلك عجلة . ونتواعد على اللقاء مساء ، ونقفل القربي . (20)

وتنهض ابنة عمي شبحة في جملة من ينهض . ولها شغلها الخاص الذي ينبغي لها القيام به . ذلك انه توجد قريبا من القرية زيتونتان تقعان على حافة سبيل يكثر تردد المارّة عليه . وكل صباح كنت تجد حبات من الزيتون على قارعة الطريق . وكان عليها هي ان تسبق المارة الى ذلك الموقع . وعندما تعود حليمة من الحقل مساء ، وتجد لباب الزيتون مسحوقا كأنه على الحصى لطخات حبر فمعنى ذلك ان شبحه لا بدّ انها ستؤدب تأديبا .

ما زلت اذكرها، شبحة المسكينة، وقد لفّت رأسها في شال قذر وخصلات من الشعر شاحبة تشوش عليها الرؤية ، وهي لا تنفك تنفخ في اصابعها الصغيرة المتجمدة وقد احمرت قليلا . وعبثا تمسح وجهها، فدموعها منسكبة ومخاطها سائل . وترتعد من البرد في قندورتها الوحيدة القصيرة الكّمين الا انها تلتقط حب الزيتون وهي تغنّي. وتراها سعيدة عندما تملأ سلّتها. وحالما تفرغ من عملها المضني ، عليها آنذاك ان تسهر على المنزل. المنزل مقفل إلّا أن ثمة الفناء وكومة الحطب الضخمة التي فيه. وتمضي شبحة سائر اليوم في الشارع تحشر نفسها بين الجيران أو تلعب مع سائر البنات او تلاميذ المدرسة ، فتلتقط من هنا وهنالك كسرة من

---

19) كذا في النص الفرنسي (المعرّب)

20) « « «

الخبز او ملعقة من الكسكسي او حفنة من التين . وعندما تمر طيور الزرزور ، ما كان ينبغي ان تحطّ على زيتونتيها . فتراها تهرع اليها لتفزعها بصوتها الخافت الرقيق وتقرع سطلا لا يفارقها أبدا فتحدث دويا شديدا . وتسهر جهدها في الداخل والخارج وتجد مع ذلك وقتا للعب .

وافلحت حليمة من جهتها في أن تبث حماسها في زوجها لونيس . فهو ايضا يريد ان يبدو ارفع منزلة وأعلى مقاما . وكثيرا ما يرى اهل تيزي الاخوين منهمكين في عمل واحد بعينه كشأنهما زمن شبابهما . وكان آنذاك مشهدا بديعا من مشاهد الوفاق بين الاخوة . أما الآن ، فان القلوب لم تعد تخفق خفقاتها المتناغمة . ان هو الآن إلّا مشهد يستدر الرثاء ؛ مشهد ربّي اسرة كل منهما يجهد نفسه في حقله الماَحل ، وكل يعمل من جهته لِصالحه الخاص ، وحريّ ان ينتصب في وجه الاخر منازعا ، لأن الحياة تسخر من العاطفة .

وفي عديد من المرات شعر رمضان ــ علمت ذلك فيما بعد ــ بشجا في حلقه وهو يرى اخاه الاكبر يعمل ، لونيس ذا اليدين الرقيقتين، والقندورة البيضاء ، لونيس الذي كان يعرف كيف يتكلم في الجماعة في كثير من اللباقة . كان يود لو انتزع منه آلته ، وأرسل به الى اجتماعاته . نعم ، لقد اكد لي ابي انه شذّب اشجار عمي خلسة ، أو نكش هذه القطعة من الارض او تلك ، الّا انه لم يكن ليستطيع ان يحل محله في كل شيء ، او ان ينهض بعمله كله كما كان يفعل سابقا . فقد كان للانفصال هذا الجانب الواقعي المتمثل في انه كان ينبغي التفكير في اعالة الاطفال . ولم يكن ذلك بالأمر الهين ولم يكن الواحد يسمح لنفسه ببعض التجاوزات. وكان يبلغ به الأمر أن يقول للآخر: «كلّ وشأنه» وعندما كان يتعذر على رمضان ان يحتمل رؤية اخيه وهو ينقض ظهره الى جواره ، اكثر مما

احتمل ، كان ينتقل الى مكان آخر وشغل آخر .

على ان عمي لم يعد يبدو عليه من الضيق اكثر مما يبدو على ابي ، بفضل زوجه وبناته . فسرعان ما امكنه حتى ان يواضب على الظهور في الجماعة ، وان يعود شيئا فشيئا الى سالف عاداته عينا من اعيان القرية . كانت حليمة تهتم بكل شيء . ومن حين لآخر ، كان بعض ابناء العم أو بعض الاصدقاء يتبرع عليها بيوم نفض أو يوم حراثة ؛ اما الحيوانات، فلم يكن يملك منها اكثر من العنزة وخروف العيد . وكانت البنات يصنعن الاواني الفخارية يقايضنها بما يعادلها من الشعير. وكن يشتغلن بعمل الصوف وكان عمي يبيع ما يصنعن.

اما عن الطعام ، فاذا استثنينا عمي نفسه ، فلا حليمة ولا بناتها كنّ كثيرات المتطلبات . وحصيلة الامر ان خالتي لم تخطيء فيما قدرت . ولولا لؤمها وخستّها لكانت اسعد من امي حالا . وكان لونيس ــ لمعرفته اياها ــ يحتملها مستسلما كما يحتمل الواحد مرضا عضالا . كانت حليمة تنهب المجموعة ، كان ذلك مسلما به فإذا هي تنهب زوجها . كانت ترفع بانتظام نصيبا من كل ما يدخل البيت ــ من حبوب وزيت وتين وصوف ــ وتبيعه بثمن بخس . وكانت تأخذ عند الحاجة القطعة من النقود او الورقة النقدية مما ادخره لونيس حتى اذا جمعت مقدارا صغيرا من المال اشترت مشبكا أو خمارا لجوهر او فوطة لملخير . وكان التاجر يسرقها لثقته بكتمانها . لكم اهدت من الهدايا الى جميع العجائز من الخاطبات ؟ وهل يمكن لأمهات شبان الحي ان يحدّثن بجميع ما قبلنه منها من الهدايا دون ان يتخذن مع ذلك من بناتها زوجات لأبنائهن ؟ وشيوخ الزوايا بتعويذاتهم الغريبة التي ينبغي ان تخاط في طرف من اطراف الجبة تحت الابطين او التي ينبغي ان تعلق في قصبة قبالة المنزل المطلوب بالضبط ، كم نقدتهم

طلاسمهم ؟ هنالك كانت تروح مدخرات عمي الضئيلة . ومع ذلك لم يُجدِ الامر فتيلا . كانت بنات عمي يتقدمن في السن ، ولا يجدن من يتزوجهن ، ويزددن قبحا على قبح .

كان عمي يستشعر جيمع تلاعبات حليمة ، لأنها ممارسات دارجة جدا عندنا . ولما كان بتلك الصفة من الصراحة والتهور ، فإنه ودّ لو ضبط زوجته متلبسة . وكانت الماكرة تضاعف من حماسها وتحثه على الكسل وتشبع نهمه . فانتهى به الامر الى ان تركها تفعل . وقلّ اهتمامه بها وببناتها شيئا فشيئا . كان قد بلغ من الكبر مبلغا . وكان يعلم منذ ولادته انه لن يكون حتما غنيا . وهل ذلك ضروري كي يحيى الانسان ثم يموت ؟

# 9

لم يبق كبير شيء نضيفه بشأن عمي لونيس ، وحليمة وبنات عمّي . فقد عشنا جنبا الى جنب كما يعيش الجيران العاديون ، وزاد مر الايام شيئا فشيئا من قلة اكتراث بعضنا ببعض . كنا نعرف ان همومنا واحدة ، ومشاغلنا واحدة ومواردنا متماثلة . فليس للواحد منا ما يحسد عليه الآخر ولا ما يخفيه عنه . لم يعد يهز حليمة ولا امي ذلك الحماس الذي كان لهما في بداية الامر . لم يبق لهما سوى ضرب من الغيرة والغيظ الا انها تجد ما يشفيها في تشابه اوضاع حياتنا التعيسة البائسة .

اما تنافس الابوين فقد اضمحل امام ما كان ينبغي تذليله من الصعوبات لاعالة الاطفال . ويمكن ان نمثل لك حال الاخوين تمثيلا فيه نصيب لا بأس به من الصحة بأنهما شبيهان ببغلين مثقلين يتصببان عرقا على دروبنا ببلاد القبايل . وحسبك ان تحثهما قليلا على التسابق ! فاذا البغلان سرعان ما يتحمسان ، ويفهمان ما يطلب منهما . وعلى العموم ليس ثمة كالبغل لحث بغل آخر على التسابق . لكن اذا كانا بغلين مسنّين

ومحمّلين والطريق وعرا، فليس ثمة ما يمكن تأميله. المهم هو السير . كذلك كان شأن رمضان ولونيس .

ربما ستتزوج بنات عمي، فيما بعد تماما مثل اختيّ . وسيبدو ذلك امرا طبيعيا تماما . فنحن ننشأ ، ونتزوج ، ونموت على نفس النحو. واحيانا عندما نتأمل في المسألة مليّا نطرح على انفسنا اسئلة محرجة . الا اننا في اغلب الاحيان ندع الامور تجري ونسلم اليها امرنا. وهو افضل .

وحصيلة الامر ان طفولتي ، أنا منراد الصغير ، ابن رمضان ، وابن اخ لونيس انقضت تافهة خاوية شأن طفولة عدد كبير من الاطفال القبايليين . ان الذكرى الوحيدة التي ظلت عالقة بذاكرتي عن تلك السن لهي لوحة تبدو لي الآن ذات صورة واحدة باهتة ، استحظرها كل مرة فلا اجد فيها من الروعة او من فرط التأثر قليلا ولا كثيرا . فأراني هكذا وقد لبست قندورة قديمة نصل لونها لكثرة ما اسيء غسلها . وعلى رأسي شاشية مهدبة الحواشي متسختها ، دون حذاء او بنطلون لأن الفصل في ذاكرتي هو دوما فصل الصيف . أما الرجلان فسوداوان مغبرتان والاظافر متسخة، واليدان مبقعتان بالغلال . أما الوجه فتخترقه سيول طويلة من العرق الجاف ، أما العينان فحمراوان والجفنان منتفخان . واذا صادف ان كان اليوم يوم استحمام ، آنذاك فهو فورولو الحالي بدون اللحية طبعا . تلك جبهته المقببة وحاجباه الغليظان إلا انهما قصيران بعض القصر ، وعيناه القسطليتان المختبئتان في محجريهما ونظرتهما العذبة التي يشوبها شيء من المكر . وثانك وجنتاه البارزتان وانف امه ثم شفتا ابيه الرقيقتان المشرفتان على ذقن مثلث الشكل . عندما احاول الآن ان اتخيل نفسي بين تلاميذي اجدني دوما ضمن اشدهم هزالا ، واقلهم شغبا اولئك الذين يخشون بذل الجهد ويكرهون الالعاب ويجدون لذة ماكرة في ان يتعلموا دوما شيئا ما .

ليس بين آل منراد ينبغي ان انشد افضل ذكريات صباي . انها تتراكم ذرات ذرات في وكر خالتيّ الصغير . اهي افضلها ؟ نعم وياللاسف ! اشدها اسى وأبعدها تأثيرا ايضا .

واعتبر اني كنت محظوظا حظوة نادرة اذ كانت لي خالتان مثل خالتي ونانا .

ان الطفل لا يعير بوجه عام عطف ابويه كبير اهمية . فانما ذلك بالنسبة اليه من تحصيل الحاصل . بل ولا يفكر في ذلك مطلقا ويملّ التدليل عندما يدلّلانه . فتراه يطمح الى عواطف اخرى فوق ذلك . فيبادر المبادرات وينشد الاصدقاء ويريد ــ واي جاحد معروف هو ! ــ ان يهب قلبه الصغير هدية ، فهو مستعد ان يفضح امه ويفضل على ابيه رجلا آخر، شريطة ان يجد رجلا ثقة . وتصطدم حميته الساذجة بلامبالاة الكبار فلا يصادف الا الخيبة وهي مصدر لأوّل احساس له بالمرارة . ففي الاسر العديدة الافراد يكون الاخوة بعضهم لبعض منافسا . أما الابوان فشغلهما الشاغل هو الصراع من اجل توفير الكسكسي كل يوم او القندورة كل سنة. كثيرة قلوب اولئك الاطفال الغضة التي لم تنفتح قط والتي تظل منطوية على كنوز من الحنان المكنون .

اما انا فكنت أحظى بذلك الامتياز النادر : يدللني اهلي من جهة ، واجد خارج البيت من اهبهم عواطفي دونما احتراز من جهة اخرى . وحسبي ان افكر في اول طور من اطوار طفولتي حتى احس الى الآن بعذوبة الجو الذي عشت فيه بين خالتيّ . فيلمّ بقلبي آنذاك شعور باسى غامض حزين .

كانت نانا متزوجة ــ علمت ذلك منذ كنت قادرا على التمييز . كان زوجها بفرنسا واسمه عمر. احيانا كانت خالتاي تحدثاني عنه وكان

حديثهما دوما قدحا وذما. لم تكن خالتي تحبه كثيرا ولم تكن نانا تستطيع ان تدافع عنه . ويقترن وجه عمر في ذاكرتي دوما بوجه أمه . اما هو فلم اكن أعرفه بالذات عندما عادت العجوز فربطت الصلة مع بنات احمد . كانت الاواني الفخارية فيما يبدو رائجة السوق والعجوز اريبة . فقد كان عمر هجر زوجته نانا ، بعد زواجه منها ببضعة اشهر ، وسافر الى فرنسا. ولا يزال بها . وكانت تجتمع في شخصه كل العيوب والنقائص . لكن امه قالت انها ستتكفل باعادته من باريس . والمرأة لا ترفض رؤية زوجها من دون ان تفكر وتعيد التفكير فضلا عن انه لن يرتضي الطلاق ابدا . أنا موقن ان خالتي استقبلت حماتها استقبالا باردا . لكن ماذا كان بوسع يمينة الرقيقة ان تفعله ؟ انصتت الى العجوز وربما انصتت ايضا قليلا الى نداء قلبها . كانت شابة ، جميلة عروبا وعرفت زوجها ، ولم تستطع نسيانه بعد ذلك مطلقا .

هذا هو السبب الذي من اجله اخذت ألاقي عند خالتيّ ، من دون ان افهم كيف تمّ ذلك ، عجوزا غريبة تفتر عن ابتسامات عريضة . وكان لزاما عليّ ان اتحدث اليها في احترام وتبجيل . لا أزال اذكر عيني تلك المرأة . كانتا واسعتين سوداوين . وكنت اشعر بكثير من الضيق والحرج عندما تقعان عليّ . كانت تعرّيك بنظرتها . كان لها وجه اصفر مستقيم القسمات وانف اشمّ ، وغضون افقية ، وفم واسع جدّا ذو شفتين رقيقتين تمططهما احيانا ببسمات كانت تبدو لي قاسية .

وكلما آذنت بالانصراف كانت نانا او خالتي تعطيها حزمة ، فتدسها في قندورتها الى بطنها والبسمة لا تفارق محياها. وتارة تعطيانها بعض التّين وطورا بعض الدقيق او الشعير .

وفعلا فقد حل عمر ذات يوم واستعاد نانتي الرقيقة . لابدّ انه عاد الى

ابويه المسنين بيد فارغة واخرى لا شيء فيها لأنه مالبث ان قبل وصايتهما دون تبرّم. كان له اخوة واخوات . ولم يكونوا يشعرون نحوه بغير قلة الاكتراث والاحتقار . وما لبثت نانا ان صُبّ عليها هي ايضا ذلك الاحتقار لأن خالتي لم يكن لديها ، وقد بقيت وحيدة ، كبير شيء تقدمه للمرأة العجوز . كان اخوة عمر يتملصون من جميع المهام العسيرة ويثقلون بها كاهله . أجل ! فقد عملوا بما فيه الكفاية مدة غيابه الذي لم يجد نفعا . ولا شك انه كان لعمر كثير من المآخذ على نفسه وعلى نمط حياته بباريس . لذلك كان يقبل في برودة وجلد دور الخادم مدبرا خطة لهروب لا رجعة منه . كان يلوّح بذلك إلى خالتي وكانت تلقى هي الاخرى نصيبها الوافر من الاحزان والاهانات .

لا يمكنني ان اقدر بالضبط كم دام كل ذلك ، ولكنني اذكر جيدا احدى امسيات الربيع او الصيف كانت الليلة قمراء ، وكنا في الفناء الصغير أنا وخالتي وبيّة ، وخالتي تقص عليّ للمرة العشرين قصة سارق القش الذي اراد الله أن يخزيه فدلّ على مساره على وجه الارض بمجرة في السماء لونها في لون اللبن . على ان للقصة روايات مختلفة . فقد يكون السارق ايضا سارق ابقار حلوب ، او طحانا لئيما خسيسا الا ان الفكرة كانت هي هي . كانت المجرة بالنسبة الى خالتي على الدوام تقريعا على المآرب الليلة المريبة .

طرق الباب طرقا عنيفا ، ففتحته بيّة توا دون تراخ . دخل عمر ونانا يلهثان . كانت نانا تحمل على ظهرها صرة كبيرة من الثياب فيها جميع اطمارها . وكان عمر متخفيا تحت الزربية الكبيرة ذات الالوان . كان يشد بإحدى يديه الى صدره مخدة ، ويحمل بالاخرى على كتفه تحت الزربية ذلك الصندوق الصغير ذا الالوان الزاهية الذي كانت خالتي تحفظ فيه

تحفها وصابونتها واسورتها وعقودها بكامل العناية . كنت اعرفه جيدا ، ذلك الصندوق . كان الشيء الوحيد الذي لم تكن خالتي تسمح لي بأن الهو به على هواي . وكانت قد حملته معها عندما التحقت بزوجها . ما معنى ذلك الانتقال من بيت الى آخر ؟ رأيت تحت ضوء القمر الشاحب عيني خالتي تتألقان فرحا . ووجنتيها تزدادان حمرة . وفهمت انها تسرّ امرا . دخلنا الخمسة الى الداخل . وجلسنا صفا واحدا كما اتفق بين الامتعة . كنت كلي آذانا صاغية . فللمرة الأولى كان امر عمر يهمني . كان يجفف جبينه بطرف برنسه الذي نسجته نانا . كان له وجه صغير اسمر هندسي الشكل يذكر قليلا بوجه امه وعينان سوداوان تتقدان حيوية ، وفم أدرد . كان يعجل في كلامه وكانت له طريقة خاصة في النطق ببعض الحروف بحيث كان ينبغي لك ان تحزر الكلمات بحسب معنى الجمل . كان قصيرا هزيلا لا يكاد طوله يزيد على طول نانا. ولئن لم اكن اخافه ، فقد كنت اكرهه بقدرما كنت اكره امه . ومع ذلك افلح تلك الليلة في ان يستدر شفقتي . كان لا يزال يضع طرفا من اطراف برنسه على جبهته . ثم اذا هو يحني هامته فجأة ويخفي وجهه . ارتجف كتفاه، واخذته نوبات من الفواق . ونظر بعضنا الى بعض، كان يبكي: كنا نصغي اليه في صمت . ومططت نانا شفتيها ورفعت يديها الى عينيها. فرفع رأسه وأبدى لي وجهه الكالح الذي لم يكن تحسن رؤيته . لم يسبق لي ان رأيت رجلا يبكي قط . كنت اظن الامر مستحيلا . لم يكن بوسعي ان افهم كيف يبكي الرجل من الرجال . احسست ان لم يبق لعمر اي شيء من عظم او بأس واذا هو يقاربني فيصبح لي قرينا بل واكاد اقول صديقا ، واذ رأيت دموع نانا انخرطت انا وبيّة في البكاء .

لم تكن خالتي تبكي ! انفجرت غاضبة . هو ذا الوقت الذي ودّت فيه

لو انها امسكت بتلابيب المرأة العجوز جزاء على جميع اهاناتها واعمالها القاسية . فما جدوى البكاء الآن ؟

ظلا هنا معنا ، فلنا من الفضاء الرحب ما يكفي ! ان ابويك لم يعودا يطيقان وجودكما معهما ؟ هكذا، فليكن ذلك . ستريهما انك رجل. وبفضل كلينا أنا وهي لن ينقصك اي شيء.

نعم كانت خالتي تعرف كيف تهون على المرء. وكانت لما تشعر به من الكمد بسبب المرأة العجوز، حَرِيّة ان تلقي بنفسها في اليم وان تضحي بحياتها في سبيل الابن . وفعلا فقد تأسى عمر واستقر في بيت خالتيّ . واخذتا تدلّلانه شتى ضروب التدليل . وخسرت كثيرا من هذا التحول . أما العجوز فطفقت تحكي لمن في القرية ان بنات احمد اختطفتا ولدها . أما امي فلم يعد يفارقها الغضب اما ابي فكان صموتا اكثر من اي وقت مضى ، واصبحت خالتاي شرستين ما ان يتعلق الامر بعمر .

لست ادري على وجه التحديد كيف دبرتا حتى وفرتا له اسباب السفر . فقد عاد ذات يوم الى فرنسا مضمرا منذ عهد بعيد ان ينسى كل شيء . ولم يجر ذكره بعد ذلك على لسان قط . واظنه قد توفي الآن . كلّ الناس يقولون ذلك اما انا فسأظل دوما حاقدا عليه سواء اكنت في ذلكَ مخطّئا او مصيبا . فقد تسبب لي في اول تعاسة .

ان ذكريات الطفولة يعوزها الدقة والترابط . فالواحد منا يحتفظ ببعض الصور الاخاذة يمكن للمقلب بعد ذلك ان يستعيدها فيقرن الواحدة الى الأخرى . واليك على سبيل المثال مشهدا مازلت استعيده : أنا وحدي بالمنزل رفقة أمي . الطقس بارد . فالفصل شتاء . والكانون تتقد فيه نار من فروع الزيتون مضيئة تحدث طقطقة . وحطبة كبيرة مسندة الى الحائط حانية رأسها فوق النار . السنة اللهب تلامسها لمسا لطيفا وتسوّدها شيئا

فشيئا ثم تأخذ في التهامها . دخلت نانا تقضقض من البرد . اقبلت علينا ، قريبا من الموقد. كانت تلبس قندورتها البيضاء اللمحلاة بازهار وردية صغيرة ، وبفوطتها القطنية وقد شدتها الى كشحها بخيط غليظ أحمر قام لها مقام الحزام . فهي لا تقوى على حزام « الفلانيلا » الذي تتمنطق به النسوة عندنا عادة . اقتربت منا في تؤدة دون ان تنبس بكلمة وبدأ على محياها الانشغال . افرجت من بين ساقيها المبللتين المحمرتين من البرد وانتصبت فوق النار بالضبط ، رفعت اسفل قندورتها مبعدة إيّاها عن السنة اللّهب.

قالت امي : تحسّين انك ثقيلة ؟

قالت : احس بتمزق في كليتيّ .

قالت : هو شهرك السابع ؟

قالت : كلّا عدّي ! بداية من العاشوراء . انما نحن في الثامن .

قالت : بطَنك لا يقلقني !.

قالت : نعم كما ترين ، هو ليس كبيرا جدا . يخيل اليّ ان الامر لا يعدو اني اكل كثيرا . أما أنا فأعرف انه يؤلمني .

ابتسمت امي عن غير اقتناع وانا نفسي ، لمّا نظرت الى نانا ، رأيت وجهها الشاحب ، وشفتيها المتورمتين ، وعينيها المتهججتين . لم يكن يبدو عليها شيء مما يبدو على شخص معافى .

— ان بطن المرأة الحبلى لا ينزل في الطفل الاول . سترين انك ستعودين جميلة مثلما كنت . المهم ان يكون غلاما .

— اواه ! يا اختاه ، لم تكوني لي القدوة الحسنة ببناتك الثلاث. كل ما اطلبه من العلي القدير ان يجعلني اجتاز هذه المحنة بسلام . لشد ما تقلقني

هذه الاوجاع التي تزدحم عليّ منذ امس . وقد جئت اراك لهذا الغرض بالذات .

قالت أمي : لا تخشي شيئا ولا تفكري في اوجاعك .

ارى في منامي أحلاما مزعجة . في يوم ليس بالبعيد كانوا يسمعون في الجماعة والعهدة على الناقل ، صوت المرأة التي انجبت توأمين .

انت في حفظ الله ورعايته يا بنيّتي . ولم تأتي اي سوء قط . سيكون ذلك بالنسبة اليه أوان مجازاتك عليه . ثم سأكون حاضرة ، وسأساعدك . اطمئني ...

تحدثنا طويلا ، أحيانا بكلمات مبطنة . لم اكن افهم شيئا يذكر . ثم لابد ان نانا كشفت عن بطنها . لم يكن في ذلك اي داع للخجل او الحرج . كانت الدماء التي تجري من عروقي في دمائهما . كنت استوي واياهما .

في شريط ذكرياتي ، يعقب هذا المشهد مباشرة مشهد آخر هو التالي : في ليلة من ليالي الشتاء ، والمطر ينزل والازقة وحلة والمآزب تبقبق ، وجداول صغيرة من المياه القذرة تلتف حول بلاطات السبل ، وتبدو المنازل الصغيرة الواطئة اصغر من حجمها بكثير ، فهي تتلاصق كئيبة وتنخفض وتضيع تحت الغيوم التي تهبط عليها قبل الغسق. دخلت بيت خالتي . كان ثمة جمع من الناس ومصباح البترول الصغير يرسل كثيرا من الدخان نحو الاكوفي . وفي الكانون حطبة تتقد . اقبلت عليّ بيّة منشغلة مهمومة وسبابتها على فمها . واصررت على البقاء . كلا لن اخرج . كانت امي زامة شفتيها وهي تمسك بنانا من تحت ابطيها . وحجبت عنّي نسوة اخريات وجه نانا . كانت أحداهن تساعد أمي على ما تبذله من جهد . وكانت خالتي تبخّر فوق بعض الجمرات في صحن قديم شيئا ما ، ما لبث

ان دخّن وارسل رائحة ساطعة قوية اخذت امرأة عجوز تأمر الاوامر بصوت جاف حازم . كانت عينا خالتي المليحتان تنظران اليّ دون أن ترياني . انصرفت هاربا .

واسرت اليّ تيتي عندما عدنا الى المنزل : غدا تقبّل ابن نانا .

لا أذكر شيئا آخر . نسيت ما فعلته في المنزل ، وكيف نمنا في غياب امي وما حدث تلك الليلة .

وافقت مذعورا على صيحات امي واختيّ : لقد لفظت نانتي الرقيقة انفاسها . اواه ! لن انسى ابدا تلك الصيحات وذلك الفزع الاكبر الذي جعلني اثب ، وانتزعني من مرقدي وجعلني اصيح من الرعب . كلما سمعت نواح نسائنا على الاموات اقشعر جلدي رغما عني لأنهن يذكرنني دوما تلك الاستفاقة الأليمة التي نعت اليّ خالتي .

ماتت بعد ليلة من الأوجاع بين يدي اختيها وقد طار منهما الصواب . ووضعت شيئا حقيرا باردا رافقها الى المقبرة . بل جرها اليها . وظلت الجثة الصغيرة مشدودة الى امها منذ الغسق . وكانت نانا تخور قواها شيئا فشيئا ويغمى عليها في كل حين . وما لبثت ان اصبحت مجرد خرقة بالية . كنا نسمع احشاءها تتقصف وسيول من الدم تجري مغرغرة كأنما تنصب من جرة مقلوبة . ولو حالفها الحظ فبذلت قليلا من الجهد لأسقطت عنها تماما تلك الثمرة الخبيثة . لكن الله لم يرأف بخالتي، كان لابد ان تنتهي عملية الولادة في الموت . عالجت سكرات الموت حتى الصباح . ثم انطفأت في هدوء مع آخر نجم من نجوم السماء .

لا أزال اذكر نانا ممدودة على زربية عرسها مسجّاة بلحاف ابيض ، ووشاح حريري اصفر يشد ذقنها ويحيط بوجهها الصغير . عيناها مغمضتان ومنخاراها مقروصان ، ووجهها اصفر كالوشاح . اني لأرى انها

ليست بنائمة . فهي تبدو كالنائمة ، الا ان ثمة ضروبا من النوم متعددة . فمنها النوم العميق ، من شدة التعب ، ونوم العافية الهادىء المطمئن والنوم المضني نوم المرض . أما الموت فشيء آخر . والان وانا استحضره ، وافكر فيه مليا بعد ان رأيت عددا كبيرا من الوجوه فان وجه نانا كان خاليا من كل تعبير . ليس فيه اي اثر للابتسام ولا للثورة ولا اي معنى من معاني الالم او الارتياح : لا شيء . ذلك هو الموت . فاذا لفظ شخص عزيز عليك انفاسه ، فلا تبحث بعد ذلك عما يربطك به . ان البرنس تعلقه في موضعه المعتاد ليذكّر بمن كان يتلفع به اكثر مما يذكرك به « جثمانه » . ما قول وجه نانا الحلوة العذبة ، ذلك الوجه الذي يحبه الجميع والذي كان يبتسم للجميع ؟ لقد اخذ الموت كل شيء وترك قناعا باردا مفاجئا ينصبه امامك كأنه سد عنيد تصطدم به آلامنا فلا تجد من صدى .

## 10

لم يكن هذا الذي حدث لنا، بالنسبة الى جميع اهالي القرية، خارجا عن المألوف . فعادة ما يحشّ الموت اناسا في شرخ الشباب . فترى الواحد يبكي وينتحب اسبوعا كاملا حتى ليكاد يبح منه الصوت ، ثم يتحسس نفسه ليحدثها بانه ما يزال حيا بعد الفقيد وان الداء رغم كل شيء داء عضال اذ لا شيء يؤثر في ساعة الاجل المقدّر المحتوم . لكن اذا كان الداء عضالا ، هان احتماله على أية حال .

شهدت امّي موت اخ لها ، واخوة ، ثم شهدت موت امها فموت ابيها . وقد الفت الالم والصمت . انها شبيهة بتلك السنديانات الضامرة التي تنبت على حافات السبل فتصر على حياة الخمول رغم تقلبات الجو ورغم الماعز يرعاها على هواه ، وفأس الرعاة تجذمها دون رحمة او شفقه . تعودت امي ان ترد الفعل بزّم شفتيها الرقيقتين . فهي رابطة الجأش في غير جهد او عديمة الاحساس لتكسر النصال على النصال . لذلك ستحتمل هذه المصيبة مثلما احتملت سابقاتها وبتستأنف الحياة وهي تسعى الى النسيان .

اما خالتي فكان الامر بالنسبة اليها مختلفا . لم تكن نانا اختها فحسب . كانت جزءا من كيانها. افضل جزء. منذ بداية رحلة العذاب ، شخصت عينا خالتي شخوصا غريبا . كانت تنظر فلا تبصر ، وتسير كأنها انسانٌ آليّ ولا تردّ على احد ، ولا يبدو انها تسمع شيئا مما يقال . وفي النهار ، وبين الباكين والنائحين ، لم تكن خالتي تبكي . كانت تجلس عند قدمي الميتة لا تكترث لغدو الزائرين ورواحهم ، عدم اكتراثها باستعدادات الدفن . متسمّرة في مكانها كأنها تمثال. أما امي وكان ينبغي أن تهتم بكل شيء ، فكانت تلتفت الى خالتي بين الفينةِ والفينة وترمقها بنظرة مذعورة . ثم آن أوان الخروج لتمكين الغاسلات من غسل نانا . ورغم جميع التوسلات رفضت ان تتحرك من موضعها . وكان من المتعذر اقناعها وردها الى الصواب . كانت تلقي على الاشياء والناس نظرة من يسير وهو نائم. وأحيانا كنت ترى تشنج عضلات وجهها . كان جفناها يطرفان بسرعة ويدها تجتذب اسفل جلبابها فجأة ثم اذا هي باكملها تتحجر من جديد . وعندما جاؤوا لحمل نانا الى مثواها الاخير، امكنا ان نرى الدموع تنبثق من عيني خالتي الا انها كانت دموعا شبه باردة لا يصاحبها اي تعبير في قسمات وجهها او اي صيحة .

قد جرت العادة ان ترافق الميت قريباته حتى خارج القرية . سارت امي واختاي وبنات عمي وجميع نساء آيت موسى في موكب تشييع جنازة يمينة الطيبة التي كانت ترحل نحو مقبرة تيزي الكبرى حاملة معها تحت الزيتونة العريقة التي تعشش فيها البوم والاشباح عذوبتها وابتساماتها وذكاءها . كانت جميع النسوة يبكين وهن يعددن تلك الخصال . لو امكن لنانا ان ترى كل ذلك الجمع الغفير لسلّاها ذلك قليلا وهون عليها الرحيل .

لكن خالتي لم تكن ضمن المشيعات . وعندما تفطنت امي واختاي

الى غيابها كان قد فات اوان اخراجها من منزلها. كانت أوصدت البوابة ثم الباب . وعبثا طرقوا الباب ونادوا وتوسلوا ، فقد ظلت خالتي غير مكترثة بشكوانا كما لم يعد يمكن ان يشدها الى عالم الاحياء منذ ذلك الحين أي سبب من الأسباب . وملّت امي التوسل واستشعرت قرب حلول مصيبة جديدة فثارت بدورها وحلّ محل الشفقة احساس بالغضب والتمرد العاتي لا ضد خالتي ، وقلبها الدامي الضعيف ، ولكن ضد ذلك القدر الاصم الذي لا يرحم وقد لا يرفض سقوط ضحية اخرى .

قالت وهي تجرني من يدي : اليّ يا اطفالي . وانت ياربّ ، ها قد تركتها لك فخذها الى جوارك . ذلك غاية ما تريده . ماذا اصنع بما كسر ؟ أواه ، سيكون انتصارك هينا لا قيمة له .

وعدنا الى منزلنا يلفنا الحزن .

وعبثا حاول عمي وابي وجارات لنا شفيقات ان تحملا خالتي على الكلام عبر الابواب الموصدة . ولما كان الليل بدأ يقترب ، طفقت امي تنوح وهي تتصور أن اختها الشديدة الطّيرة ، قد تنام وحدها مع ذكريات الميتة . وذهبت اليها تستعطفها مرة اخرى ، وانصتت مليّا فسمعت آنذاك خالتي وهي تسير. أنبتها وقرعتها على قلة شجاعتها وقلة إسلامها لمشيئة الله، وقسوة قلبها على الباقين ، وأنانيتها ودعتها إلى أن تفتح لها الباب وأن تأتي معنا فتمضي الليلة عندنا أو تتركنا ننام معها . وتوقفت خالتي عن السير فلم نسمع لها حسيسا وتركناها وشأنها .

وحوالي منتصف الليل ، بدأت خالتي تحدث نفسها وهي تقهقه . وما لبثت ان اخذت تبعثر المواعين في جلبة وضجيج، وتضرب في الاكوفي ضربات شديدة. ثم سمعناها تغني بأعلى صوتها ما اتفق لها من اغان دينية او خليعة ، رافعة عقيرتها بصوت يتغنى بالحياة الدنيا الى جانب مدائح

نبوية تمجد حسن فتاة عذراء ، مقرونة بنشيد الموتى . وتعذر على الجيران النوم . فجاؤوا ينبهوننا الى ان خالتي قد جنّت . وفي صمت حزين انتظرناها في الشارع امام البوابة ، حتى مطلع الفجر . وعندما اسفر الصبح او أوشك ، فتحت خالتي الابواب وهي تقهقه .

وهرعنا الى داخل منزلها . ياله من مشهد ! كانت الامتعة مطروحة خلط ملط والرفوف فارغة ، وعلى بصيص ضئيل من نور الصباح ، رأيت في جميع زوايا البيت اكواما مكومة من الادباش والمواعين . كانت جرة الماء الضخمة مقلوبة وعتبة الباب مغمورة بالمياه ، والأكوفي راقد على جنبه ، وقد اختفى حلقه العريض الى النصف في كثيب من القمح . وفي وسط تلك الفوضى كانت خالتي تنتصب واقفة ، وشعرها الغزير يخفق على كتفيها وعلى ظهرها حرا طليقا . كانت جميلة على تلك الصورة . وتفطنت امي وسائر النسوة الى ذلك الا انهن فهمن انها ميؤوس منها . آنذاك اجهشن بالبكاء. ان هذه المصيبة الجديدة بالذات لهو ما كانت تخشاه امي.! ومثلما حدث في الليلة السابقة ، هرعت الجموع ، فكان الفناء الصغير يعج بالخلق . لم ينته الناس بعد من امر بنات احمد المنكودات الحظ .

كان بعض الزوار يؤكدون انها نوبة عابرة . فقد سبق ان حدثت امور من ذلك القبيل لكننا كنا جميعا هنالك في الساحة الصغيرة متراصّين بعضنا لصق بعض ننظر الى خالتي ونترصد ادنى أمارة من امارات الذكاء في نظرتها الجامدة . ونحمل هذيانها المؤسف على معنى معقول .

وتعبت خالتي ، لا شك ، من جولتها المسائية فجلست على عتبة الباب تنظر الى الغادين والرائحين في وقاحة . ومن حين الى آخر كانت تعيد ضفائرها الى صدرها ، وتلهو بخضلات شعرها الجميل تعقده عقدا ثم

تنتفه بقوة وتلقي منه بقبضة مكشّرة عن انيابها من الالم . وكانت رجلاها الرقيقتان منفرجتين في غير حياء ، فحاولت امي أن تضمهما في هيئة اكثر احتشاما . كانت خالتي تغمغم ساخطة ، وتسارع الى رفع اسفل قندورتها كاشفة عن بطنها . وكان الرجال يحولون عنها انظارهم ويخرجون هازّين رؤوسهم ، تاركين النسوة وحدهن قبالة المجنونة . وتطأطيء خالتي رأسها في مكر . كنا ننظر إليها في آنتباه ولم نكن نغفل عن أيّ حركة من حركاتها. كان يبدو عليها أنها تتفطن إلى ذلك بفضل مسكة من الوعي عجيبة ظلت لديها . وكان من يراها يظن انها تدبر لمكيدة وان ظاهر اسلامها خدعة متعمدة . كانت امي تمسك بيدي وفي عينيها وميض من الامل فاقتربنا من خالتي حتى يثوب اليها رشدها .

— انظري الى صديقك الصغير ، يجب ان لا يخاف منك اليس كذلك ؟

وهزت نحوي عينين انكرتهما ، عينين فيهما نظرة متغيرة تنكراني ، عينين تلمعان تارة ببريق غريب وتارة تنطفئان فجأة ، وقد غشاهما حجاب غير منظور ، وطورا تحدقان فيّ وتخترقاني ثم تتحولان عني فتتيهان في الفضاء البعيد ! أوه من عينين بائستين لمجنون ، لن يمكنني رؤيتهما إن رأيتهما دون ان أتأثر ايما تأثر . فهما وحدهما اللذان يعكسان عذاب الروح ، ويبحثان في وله عما فرط من القلب والدماغ . ولذلك تراهما زائغتين ، مذعورتين ، تبعثان على الفزع وتستدران الشفقة . لم لا ينعم الله على المجانين بفقدان البصر ؟ اعتقد ان آلامهم ستكونك تراهما زائغتين ، مذعورتين ، تبعثان على الفزع وتستدران الشفقة . لم لا ينعم الله على المجانين بفقدان البصر ؟ اعتقد ان آلامهم ستكون اهون عليهم .

كنت اضطرب امامها فرقا تلك التي طالما احبتني ودللتني ، وكانت

بالنسبة اليّ معينا من العطف والحلم . خانتني شجاعتي امام تلك التي علمتني كيف اكبر الشجاعة وابكي من الشفقة . هل تفطنت الى ذلك ام ان الصدفة هي التي عاقبتني على جبني ؟ امسكتني خالتي بلهفة وطبعت على خدّي قبلتين كبيرتين ثم اشاحت عني بوجهها وطفقت تضحك ضحكا ابله .

كانت النسوة يعلقن على هذه المعانقة الحارة في تأثر بالغ وهو الآونة التي اختارتها المجنونة كي تعبر الساحة في قفزتين ، وتعدو باقصى ما تستطيع من السرعة عند منعطف الطريق . واندفعنا نجري وراءها . كانت لا تلوي على شيء ، في قندورتها التي لا يشدها حزام ، والتي كانت تتخبط عند كعبيها ، وشعرها يخفق على كتفيها . كان الصبية الذين يعترضون سبيلها ينتحون جانبا مفسحين لها الطريق . ولقد حاوت امرأة أن توقفها فاذا هي تطرحها على الارض طرحا . وجرّتنا على إثرها حتى خارج القرية لكن قد أعلنت حالة الاستنفار فهب بعض ابناء عمومتنا يلاحقونها ، وأدركوها وعادوا بها رغم تشنجاتنا وضرباتها وصيحاتها وشتائمها .

وعادت خالتي لا الى الدويرة الصغير ، ولكن الى بيت والديّ. اقفلنا بوابتنا ، وظللنا معها بمفردنا. كانت عيناها تلمعان لمعانا وكانت صفحة وجهها تتألق بهاء وقد لفحها هواء الصباح المنعش . كانت كمن ينظر الينا نظرة ازدراء ، ويتهددنا بالثأر كأنها لنا خصيم مبين . لم تكن تغض من بصرها ، في خضوع الا متى رأت سيماء ابي وقد بدا عليه القطوب، لذلك كنا نأمل ان يظل في المنزل لأننا بدأنا نخشاها لكن ، كان لابد له ان يخرج لقضاء شؤونه . قهقهت خالتي من الانبساط . لا أزال ارى المشهد ماثلا امام عيني . كانت مستندة الى حائط من الحيطان قرب الرحى وكنت انتحي مكانا بعيدا نسبيا ، مقابل الباب ، مستعدا لأن

اتوارى عن الانظار ولا بد ان تيتي قد استحسنت الموقع الذي كنت فيه فأرادت ان تعبر المنزل وتأتي الى جواري . وفي الآونة التي كانت تمر امام خالتي ، شدتها من شعرها شدة عنيفة .

— اليّ يا بنيتي ، لا تخشي شيئا من خالتك !

وتهالكت تيتي على الارض وهي تعول من الفزع . واندفعت خارج المنزل تتبعني بيّة . وتدخّلت امي . فإذا خالتي تقبض عليها هي الاخرى . واستنفرت صيحاتنا حليمة وبناتها وبعض الجارات فجئن وتمكنّ من كبح جماح خالتي . وظللن معها يراقبنها معا حتى عودة ابي ..

ما اتعسها من ايام قضيناها !. لقد كاد مصير خالتي ينسينا نانا المسكينة نانا التي لم يكد قبرها ينغلق . وها نحن الآن في حيرة كبرى ! ماذا نفعل بخالتي ؟ لم يكن لنا سوى بيت واحد ، فأين نؤويها ؟ او بالاحرى اين نحبسها ؟ لأنه كان يجب إن نحبسها حتى نمنعها الاضرار او الفرار . كان احتمال فرارها هو الذي يشغل ابي بالدرجة الاولى . وقد سمعته يتحدث الى بعض الاعمام . كان يخشى اتعس الامور ان هي فرّت . ومن يدري ؟ فهي امرأة شابة ، ويمكنها ان تذهب الى بلد غريب وان تلحق باسرتنا العار . فهل سيفكر اناس غرباء في مراعاة مجنونة ؟ ستظل الوصمة عالقة بالاسرة . ثم او ليست خالتي في المنزل خطرا يتهدد الاطفال . قد تثور ثائرتها . فكيف يمكن للكبار ان يظلوا دوما معها ؟ كان الحل المعقول الوحيد يتمثل في ان نقيد رجليها في انتظار ان تتماثل الى الشفاء او تصبح اكثر وداعة .

ومنذ اليوم الموالي ، ذهب والداي الى الحقل وتركا خالتي معي ومع تيتي . كانت رجلاها مربوطتين ربطا وثيقا بواسطة حبل من شعر الماعز يعلو خاصرتها ويشدها الى ركيزة من ركائز حجرة المؤونة . وكانت هكذا

مسالمة ولكنها تستدر الشفقة حتى من قلوبنا نحن الاطفال . اذكر ان اختي ما كانت تستطيع ان تنظر اليها دون ان تبكي . واننا كنا نرفض الخروج الى اللّعب وتركها ولو دقيقة واحدة الى حين عودة ابي وبيّة .

وفي مساء ذلك اليوم ، بينما كنت نائما مع اختيّ في حجرة المؤونة ، حلّ ابي وثاق خالتي وامرها ان تأكل . كان يتحدث اليها بصوت آمر . كان كلاهما مخيفا يبعث على الفزع. كان كل منهما ينظر الى الاخر شزرا . وانشأت خالتي تصيح . فتركها تفعل على هواها . وفي لحظة ما ، رأيناها تتناول صحن الكسكسي وتأكل بيدها في نهم . كانت الملعقة سقطت عند قدميها . وفي لمحة اتت على جميع ما بالصحن . وقبل ان يتدخل ابي القت به نحو الباب فتطاير شظايا .

كانت امي كئيبة حزينة ، ولكن لم يكن ذلك الا البداية . فما كنا قادرين على ان نكفل مجنونة وان نحتمل جميع نزواتها . كان القدر قاسيا على والدي قسوة مفرطة . فقد كان عليهما باديء ذي بدء ان يسهرا الليل كله بالتناوب لمراقبة خالتي عن كثب . كان بوسعها ان توقع بهما ، كأن تضرم النار في البيت او تقلب جرة زيت او تخنق الكبش او ابسط من ذلك — ابن اخيها . فما ان يفك عن يديها الوثاق حتى تتلهى بتمزيق جلابيبها اربا اربا .

كانت تريد ان تلبس الاسمال المخرّقة . فلم تلبث ان اتلفت مال اختها لأنه لم يبق لها اي شيء بعد ان مزقت الجلابيب التي ورثتها عن نانا المسكينة . ولم يكن ابي قادرا على ان يشتري لها ثوبا جديدا . وأخيرا فان خالتي اصبحت، بعدما كانت منظمة الى حد الهوس ، تثير القرف والاشمئزاز . كانت تخشى الماء كأنه النار ، ولا تريد ان يسرح أحد شعرها وتقضي حاجتها الطبيعية في مكانها . ولم يكن منزلنا يوما بأوسخ منه في

تلك الايام التعيسة . الغريب ان خالتي كانت تزدرد كل ما يقدم إليها . ورغم ذلك فان صحتها احسن بكثير مما كانت . كانت تزداد سمنا ونضارة وصوتها يصبح جهيرا . كانت اشبه شيء بحيوان ولم يشب اليها رشدها . اما أمي ، فكانت بعكس ذلك تزداد ضنى ويجف عودها . وبدأ الجيران يشفقون عليها الا ان الشفقة لم تكن تغني عنا كثيرا . ولم نعد نرثي لخالتي لأننا كنا نقدر اننا أحق منها بالرثاء . كنا نرجو خلاصا ، مهما يكن ذلك الخلاص .

وأذكر ان خالتي اصبحت في وقت ما فجأة اكثر وداعة . كانت شبه واهنة فلم نشدّ وثاقها بعد ذلك . كانت تجلس منذ الصباح الباكر على دكة من الحجارة قريبا من الباب وتمضي اليوم هنالك . وتظل مستغرقة في احلام ليس لها من نهاية . كان القمل المنتشر على اسمالها يصطلي شمس الشتاء الناعمة اللطيفة . ما كان ينبغي لأحد أن يكلمها او ان يلمسها . كانت امي تقول لنا ان ذلك بسبب اكتمال البدر . كانت توجس خيفة من عودة نوبة الغضب اليها عند مطلع الهلال الجديد . اما جاراتنا ، فكن يزعمن ان الجن يعلمون خالتي الشعوذة ، وانها لن تلبث ان تتنبأ بالغيب وانها ستكسب عندها ما يمكّن من الانفاق على الاسرة بدون حساب .

لا املك سوى ان اعترف بأن ابي كان يسترق السمع الى هذه التخمينات بأذن راضية لشدة قساوة الحياة معنا . اما امي فكانت تثور ثائرتها لمجرد التفكير في الحصول على اي ايراد من مثل تلك المصيبة . لم تكن تريد ان تصبح إحدى بنات أحمد مشعوذة تقرأ الفأل . أهون من ذلك الفقر ، او موت المجنونة !. ما كانت تود ان يكون ، هو ان تقاد اختها الى بعض الشيوخ الصالحين المشهورين في الزوايا حتى يحاولوا التعزيم عليها طردا للارواح الشريرة . لكن ، فضلا عن انها لم تكن تؤمن كثيرا

بقدرة اولئك الشيوخ ، لم يكن من اليسير ان يسافر ابي صحبة امرأة شابة مجنونة . ولو فعل لتطلب منه مالا ودابة ومرافقين وأن يترك حقله وبيته وان يقبل فكرة أن يجازف مجازفات لا يمكن تقديرها وان لا يعوّل على الشفاء كثيرا .

واطمأن آل منراد للحال الجديدة التي صارت اليها خالتي وقد اصبحت مسالمة فعادوا شيئا فشيئا الى نسق حياتهم المعتاد . وكان يصادف والديّ وهما في خضم مشاكلهما وهمومهما ان ينسيا المجنونة فلا يفكران فيها الا عندما يريانها في البيت . ولم تلبث ان اصبحت مجرّد فم إضافي يجب اطعامه . وفقدنا شيئا فشيئا كل امل في رؤيتها سليمة معافاة . كما فقدنا عادة مراقبتها . وقد كان يصادف ان تخرج خالتي بمفردها وان تذهب الى هذه الجارة او تلك . كان من عادتها ان تفتح بوابة منزل من المنازل ، كما صادف واتفق ، وتقف عند عتبها ، لا تنبس بكلمة . كانت النساء يحاولن التحدث اليها دون اي نتيجة . وعندما كن يقدمن اليها شيئا ما ، كانت تمد يدها في قلّة اكتراث وبصرها دوما ساهم.

وذات مساء ، عادت فاطمة وبيّة ورمضان من الحقل فلم يعثروا على خالتي بالبيت . كانت تيتي ، وقد قضت يومها في الساحة والصغيرة زازو على ظهرها ، رأت خالتي تخرج بعد خروج ابويها بلحظات . وأنا نفسي حاولت ان اوقفها عندما مرت امام المدرسة حوالي العاشرة ، قالت لي : دعني أر اختي !

اغروقت عينا امي بالدموع وهي تسمع شهادتي . كانت تلك هي المرة الاولى التي تتحدث فيها خالتي عن الميتة . فهل كان ذلك دليلا على تماثلها الى الشفاء ؟ لما كانت المقبرة على مسافة بمعلومة من المدرسة ارسلني ابي مع تيتي آملا ان اعثر على خالتي عند قبر نانا . كانت امي

واثقة من ذلك . الا اننا لم نجد بالمقبرة أحدا . فصممنا على تفتيش الحي . فلم نظفر بطائل . وبعد ان فتشنا ساعة ، علم ابي من احد الرعاة ان خالتي قد ذهبت الى «أمَلْو»

«املو» هو غرس الزيتون الذي خلفه احمد لبناته الثلاث: وهو قطعة من الارض صغيرة تقع في بطن واد عميق يشقها سيل متقلب الاهواء ، ذو مجرى صخريّ ضيق متعرج . وكان ثمة شعب ضيق تحده الاشواك وشجر المُصْطَكَا يجري متعرجا من القرية حتى «أملو». ويتطلب قطعه نصف ساعة نزولا ، أما صعودا فأكثر من ساعة . كنا في شهر مارس. وقد اوشك الليل ان يخيم على الكون وقد عاد ابي منهوكا بعد يوم من الحراثة . فلم يكن له من الشجاعة ما يجعله ينزل حتى أملو ليعود بالمجنونة . على انها اصبحت الان وديعة جدا . كان يمكننا ان نتصور انها ستقضي ليلتها في الكوخ الصغير المغطى سقفه بالقش الواقع عند زاوية من قطعة الارض تلك والتي كان من عادة بنات احمد ان يختزنّ فيها بعض الحزم من العلف قبل بيعها . ولما كانت خالتي تعرف قطعة الأرض جزءا جزءا ، فان امي نفسها قطعت بأن اختها ستذهب بطبيعتها الى الكوخ كي تنام . على ان قضاء ليلة في الهواء الطلق بين الاعشاب الباسقة قد يعيد الى المجنونة صوابها . فهل ان المتاعب ستعود ؟ كنت تشعر في البيت ببعض الضيق والكلال . وباختصار ، لم نقلق اكثر مما ينبغي .

وفي اثناء الليل ، تبدل الجوّ فجأة كشأنه دوما في شهر مارس ، وأخذ المطر يطقطق على السطوح طقطقة عنيفة والريح تعزف اغانيها الحزينة في الازقة الطويلة وتمر عبر فجوات الابواب . واخذت امي تفكر في اختها . أراد ابي ان يطمئنها ولكنها كانت تتوقع عواقب وخيمة . وملّ ابي الاستماع اليها وشعر بما يكفي من الحرج فهب واقفا ولبس ثيابه وخرج . وسمعناه

ينادي اخاه ثم يتشاور معه . وأيقظ بعض ابناء العم الاخرين ثم عاد الى بيتنا للتشاور . كانوا خمسة او ستة وقد انتعلوا احذيتهم الجلدية وتلفعوا ببرانيس قديمة وغطوا رؤوسهم بطرابيشها ولفوا اطرافها حول الرقبة . كانوا مسلحين بعصيّ حتى يهتدوا بها في الظلام . غير ان المطر زادت حدته، وعندما آن اوان الخروج ، كانت القطرات الكبرى تتساقط كأنها عصف من حبات البرد . وتوغلوا في الليل البهيم وتركونا قلقين . لقد انصرفوا هم انفسهم في كآبة وصمت يتخبطون في البرك الصغيرة والموحلة ، سائرين صفا كأنهم اشباح . ومن اسفل الربوة حيث تجثم القرية امكنهم ان يسمعوا سيل «أملو» وهو يزمجر في غيض .

وعندما استيقظت صباحا ، رأيت برنس ابي معلقا في مشجب مسمر في الحائط قريبا من الباب . كان مبللا قذرا وكان يقطر ماؤه على العتبة . كان ابي نائما في ركنه وقد اندس تحت غطاء . لم يعثروا على خالتي . ولم نرها بعد ذلك اليوم البتة . وظل سر اختفائها لغزا يحير كافة العائلة . أما انا فاعتقد انها هلكت واحتملها السيل الجرار الذي يمر غير بعيد من الكوخ .

ان نهر «السباو» او روافده قد تلقي احيانا في سهل تيزي ــ وزو على ضفافها الفسيحة الناعسة جثة متورمة، البطن منها منتفخ كانه بالون وبقع زرقاء على كامل الجثة والحاجبان مسودان والشفتان مورمتان ، واللسان منتفخ وقد مال نصفه الى احد شقي الفم . فهل ألقى النهر بخالتي على تلك الصفة ؟ لم نعرف ذلك مطلقا . وعندما يتم العثور على واحد من أولئك الموتى يسري الخبر من قرية الى قرية ، فيذهب اناس لمعاينة الجثة ويعودون بها الى ذويهم وتقام للميت جنازة وفقا للعادات والتقاليد الجاري بها العمل . والا فانه يدفن الله اعلم كيف . وتكف الاسرة عن ترقب الفقيد .

ذلك ما حصل لنا . فلا اثر لخالتي رغم اسبوع من البحث والتنقيب . بل واصبح من المشكوك فيه حتى ان تكون قد نزلت الى الحقل . ولم يعد الراعي يجزم بشيء بعدما اصرّت النساء على رأي آخر : لم اكن كاذبا عندما نقلت اقوال خالتي ، عندما مرت امام المدرسة . فسارعن الى استنتاج ان المجنونة قد توفيت كما تتوفى قدّيسة في العصور التوراتية وانها آلتحقت باختها الحبيبة باسباب دنيوية ، كما لو ان الامر يتعلق بالانتقال من مسكن الى آخر . لم يكن الناس الذين بهم مسكة من عقل يعتقدون شيئا من ذلك ، وكانت امي حزينة تنوح على الميتة الشنيعة التي ذهبت بأختها .

ولو قلت إننا بكينا خالتي كثيرا لكنت ربما مبالغا. فمنذ موت خالتي كان منزلنا في شبه حداد ، فضلا عن جميع ما كان ينبغي تحمله من المتاعب . واذا استثنينا نصيبا من الغم والشفقة ، فالذي كان يغلب علينا انما هو التعب والارهاق من ذلك الوضع . كنا نتلهف شوقا الى قليل من السرور والهناء . ولم يكن احد غير امي يحس احساسا مريرا بذلك الفقد الجديد . كانت تردد قائلة : انها ترى آخر غصن من الشجرة العائلية يسقط ـــ مسكين هو، غصن تلك الشجرة اليابسة ـــ وأنها اصبحت منذ ذلك الحين وحيدة ، ولم يعد لها من مأوى سوى سقف بيت زوجها، ولا من مودّة سوى مودة ابنائها . وكانت احيانا اخرى تلوم نفسها على انها اهملت اختها .

أما نحن الاطفال ، ففهمنا ايضا اننا فقدنا شيئا ما : فقد بيعت دويرة خالتينا ، باعها ابي لجار من الجيران هدم من توّه الحاجز . لم نعد نهتم بالحقل ، حقل الفاجعة . فقد باعه ابناء عمومتنا ، آيت موسى ، وتقاسموا ثمنه ، وفقدنا آنذاك مأوانا الهنيء ووكرنا العزيز ولم يعد لنا من احد نحبه

سوى ابوينا ، ولا من احد يهتم بنا . لم نعد نملك الا ان يشد بعضنا بعضا
في خوف حول ابينا وأمنا .

## الابن البكر

أما الآن ، فان تلك الفاقة التي احتملها أبواي في اباء وعزة نفس ، لهي اليوم عنوان مجدي وفخاري . آنذاك ، كانت تبدو لي خزيا وكنت أبذل قصارى جهدي حتى أسترها . ما أروع الحياء البشري .

ميشلي

هذه نبذة الاعترافات التي يمكن لكل ان يقرأها في كراس منراد فورولو الضخم المخطط . ويتعهد الراوي ، وقد اطلع عليه وها هو يقترحه على القارىء ، بأن يذهب في الامور الى غايتها . لا يكاد يكون من الضروري ان نعيد ونكرّر أن فورولو قد سكت تواضعا او حياء . وانه اعار قلمه الى صديق لن يغدر به ولكنه لا يجهل شيئا من أمر قصته ، اخ فضولي ثرثار ليس له اي ذرة من خبث ، ويصفح عنه الواحد مبتسما .

عندما يقال بشأنك كل شيء يا فورولو ، فقد تكون فارقت الحياة لأن الحياة ليست حتما بالطويلة . فهل سيدري ابناؤك واحفادك انك قد تألمت ؟ اجل . يحسن ان يعلموا ذلك ، لكنهم ايضا ، سيتألمون ويحبون ويقاومون . فما هي يا ترى العبرة التي يحسن تلقينهم

اياها . وتهمس ــ واي عبرة ؟ ليس ثمة من عبر . والمحَ ابتسامتك العذبة المستسلمة . انك تود لو سكت الراوي؛ لا،دعه يفعل. فهو لا يمنّي نفسه الاماني، ولكنه يحبك حبا جما . سيروي قصة حياتك التي تشبه آلاف الحيوات الاخرى ، لكن مع هذه الميزة الخاصة الا وهي انك طموح يافورولو وانه امكنك ان تسمو بنفسك ، وانك قد تميل الى ازدراء الاخرين قليلا ، أولئك الذي لم يقدروا على ما قدرت عليه .

لو فعلت لكنت مخطئا يا فورولو لأنك لست سوى حالة شاذة . أما العبرة والمثال فأولئك الناس هم الجديرون بتقديمها .

# 1

في نفس السنة التي فقد فيها فوررولو خالتيه ، بين ما كان جميعهم يتمنى قليلا من السعادة والهناء ، ولد لفورلو اخ جديد سموه ددار وايقظ مجيئه غيظ حليمة الدفين.

اما فوررولو فهو اذ فقد لقب الابن الأوحد فقد حصل على لقب الابن البكر وقد فسروا له انه يشمل بعض الواجبات مستقبلا، عندما يكبر المولود الجديد ، وكثيرا من المنافع حاضرا . ولقد نال بادىء ذي بدء نصيبه من جميع الطيبات التي اكلتها امه كي تبرأ (من بيض ولحم وخبز بشماط) . أما فيما بعد ، ولما كان للصبي نصيبه الرمزي من كل ما يتقاسم، فانهم كانوا يمدون يدهم كمن يقدم اليه شيئا ثم انها كانت تنحرف نحو فوررولو فكان يحصل هكذا على ضعف ما كان يحصل عليه الاخرون . ولم يكن للاخوات ان يقلن شيئا . فللأخ الحق كل الحق في ان يتنازل عما له لأخيه البكر . وانها لغلطتهن ان كن مجرد بنات .

واذن فها هي ذا اسرة منراد بتمامها وكمالها . سبعة اشخاص . شخص

واحد يعمل ويكسب القوت هو الأب . وهو يكدح ليلا نهارا، ولا يضيع يوما واحدا ، ولا يسمح لنفسه او لغيره ، بأي ضرب من ضروب الترف . وترتعد فرائصه عند قرب الاعياد لأنها تبتلع الدراهم . وترتعد فرائصه عند قرب فصل الشتاء لأنه يبتلع مدخرات المؤونة. كبر فورولو واخواه واخواته بقدر الامكان . وحصيلة الامر انهم قضوا رغم ذلك مدة هادئة هنيّة لا يحتفظ منها فورولو الا بذكرى غامضة . انه لا يذكر في دقة سوى الاوقات التعيسة من ايام طفولته .

كان له من العمر حوالي احدى عشرة سنة عندما انهك التعب اباه ، فمرض مرضا شديدا . كان ذلك في آخر موسم التين . وكان رمضان قد قضى من قبل جميع الليالي في الحقل يراقب المنشر . وذات صباح ، صعد الى المنزل وعيناه غائرتان في محجريهما ، وجسده لاهب، وشفتاه بيضاوان. وتهالك على كيس اوراق المرّان وكان جلبه معه على ظهره في مشقة وعناء وهو يئن انينا . وهرعوا اليه بحصير وغطاء ومخدة مستديرة كلّ الاستدراة ، مسطحة . ونام رافضا أن يأكل اي شيء . كان لا يزال يئن . واعتقدت زوجته انها مسألة عابرة . وتساءلت البنات ان كان ينبغي لهن ان يبكين . أما فورولو فظل جامدا مادام الامر لا يهمه . ان اباه لشديد . ويمكنه احتمال المرض .

قالت الأم : ليس للثورين ما يعتلفانه الليلة . هل تعلم ؟ أحقا انك لا تستطيع ان تملأ لهما كيسا هذا المساء ؟

ــ كلّا، أنا مريض . اذهبي الى الحقل واطفالك . اصعدي فوق شجرة المرّان الوسطى، انها ألذها جميعا ورقيها كذلك ايسر. كنت اريد ان ابقيها للّقم الأخيرة. وما دام الامر كذلك فاذهبوا . لا تتركي فورولو يصعد فوق الشجرة وليتولّ سقي الثورين . أريد أن انام . مريهم يلعبوا خارج البيت !

وعادت الام مساء . واخذت تثقل عليه باسئلتها :
ـــ ألست احسن حالا ؟ لو استغنت بعصى لربما امكنك ان تذهب فتحرس شجرة التين . يكفي ان يراك الناس تمر . ان مجرد حضورك يبعد السرّاق ..
ـــ اطلبي من اخي أن يأتي. سيعوضني الليلة. مهلا. قولي له ان يأتي . أرسلي اليه بالغلام . مزيدا من الشراب .
ـــ اتريد ان اضغط بيديّ على موضع بعينه يؤلمك ؟
ـــ كلّا، احس بالم في كل مكان .
ـــ تريدَ قبضة من التين ؟ او لعلك تريد قليلا من الكسكسي باللبن الرائب ؟ انه منعش !
لم يعد رمضان يجيب عن اسئلتها . اغمض عينيه ولم يفتحهما الا لاستقبال اخيه . ولاحظ لونيس هو الآخر أن المسألة غير ذات بال . سيذهب الى الحقل لينام هناك . ولكنه في اليوم الموالي خرج باكرا في سفرة تدوم اسبوعا .
واثناء الليل ، اخذ المريض يهذي ويتلفظ بأقوال متهافتة ، فيتوجه بالخطاب الى امه الميتة . ويختنق فيعنّف اناسا غرباء غير منظورين يقول انهم يتوعدونه . لم تنم الزوجة واستيقظ الاطفال . كانوا صامتين يرتعدون . قالت امي : انهم الجن ، أبوكم يتصارع معهم منذ ساعة .
انكمش فورولو في موضعه وود لو ان الجن لا ينتبهون الى وجوده . لقد طرحوا ابي ارضا ، انهم لأشداء غلاظ .
وفي اليوم الموالي ، استيقظ فورولو في غير كبير عناء عند مطلع الشمس رغم انه تعود النوم ملء جفنيه ، ورافق اخته بيّة الى الحقل . كان عليهما ان يخرجا من الكوخ غرابيل التين الى المنشر وان يلتقطا غيرها تحت شجر

التين وان يقودا الخروفين الى المرعى ، ويعودا بكيس من اوراق المران قطفها عمّهما على ضوء القمر . وهو يعلم ان عليه ، عندما يعود الى المنزل، ان يورد الثورين الماء وإنّه سيعود إلى الحقل بعد الظهر لادخال التين الى الكوخ، وملء الكيس للدّواب، والبحث عن الحطَب الجاف بين الأغصان، للكانون . وفكر ان اباه سيكون به مسرورا .

وعاد الى المنزل فوجد شيخا هرما يكتب تميمة . كان الأب نائما. ايقظ الشيخ المريض يسأله . أجاب رمضان عن الاسئلة بكل تعقل. ورغم ذلك فقد اكتشف الطالب في كلامه معنى باطنا خبيثا . ومن الجلي حسب رأيه ، أن الجن قد شُوّشت راحتهم ليلا الى جانب عين جارية قرب المنشر وانهم سكنوا جسده لأنه لم يحتط لاتقاء شرهم كأن يقول مثلا « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . واذن فالخطأ كل الخطأ من جانب المريض . اما الان فان طردهم يستوجب ذبح تيس وتبخير اسفل بطن المريض بورقة من الرند ــــ وردية اللون ، مكتوبة على الجانبين . وتكرر تلك العملية ثلاثا . ولتجنب كل التباس رسم الطالب على كل ورقة من اوراق الرند الثلاث اما خطا واحدا او خطين او ثلاثة خطوط .

كان فورولو يَفْرَقُ من الجن الفَرَقَ الاكبر ولا يريد معاكستهم ولو مثقال ذرة . يذكر جيدا في هذا المقام طرفة صغيرة قصها عليهم معلمهم . وصورة ذلك ان امه العجوز طلبت منه حرزا . واخذا بخاطرها ، أتاها يوما بقصاصة من الورق مطوية طيا حسنا فيها نص «الزيز والنملة»(21) باكمله. وحتى يبين لأختيه انه شديد النباهة وانه لم ينخدع بكلام الشيخ المعمم

---

21) هو قصة على لسان الحيوان للكاتب الفرنسي الشهير لافونتان عن نملة تكد وزيز يغني وهو مثل يضرب للكاد والكسول . (المعرّب)

الذي استلّ منهم عشرة فرنكات ، قص عليهم مُلحة المعلم مضيفا ان الزيز والنملة شفيا المرأة العجوز . كما لم يكن ليفعله حرز حقيقي . لكن لكي يجرؤ على مثل هذا النقد جهارا فعليه ان ينتظر انصراف الشيخ ونعاس ابيه. فمن يدري ما يمكن أن يحدث . من يدريك ، عندما تكون عينا الأب مفتوحتين ان ليس الجن الذين يسكنونه هم الذين يرنون اليك ويترصدونك ويمكنهم ان يباغتوك فينتقلوا من محل سكناهم ويسكنوك انت . في تلك الأوقات بالذات، كان فورولو، واين منه حديث معلمه ، ينتحي في حذر ناحية اخرى .

ومع ذلك فإن مخاوفه باطلة لأن الجن لم يعتزموا مفارقة ضحيتهم . ولم يفلح الشيخ الثاني ولا الثالث اكثر مما افلح الاول . كان الأب يعيد ويكرر انه لا « يسكنه » شيء البتة ، ولكن ، عندما يعود الى هذيانه ، كان من الصعب تصديقه .

وعاد اخوه لونيس من سفرته اخيرا ، فاندهش كل الاندهاش لما رأى العلة قد زادت به . فقد كان الامر اذن خطيرا حقا . ولما كان المصاب لا ينزل إلّا ومعه مصاب آخر ، فقد هشم بعضهم باب الكوخ ذات ليلة لم يجدوا فيها احدا يحرسه. نهبوا الغرابل ونصيبيا لا بأس به من التين . وتولى لونيس مقاليد امور المنزل . فاتفق مع صاحبه على بيع الثورين اذ لم نعد قادرين على تعهدهما وذهب نصيبنا من الربح سدى في علاج المريض . ولم يعمّر طويلا . كنا في حاجة الى الدقيق واللحم مرة في الاسبوع . وذبحنا جديا آخر ومن حين لآخر دجاجة— وكان العيد على الابواب فاضطررنا الى شراء جلابيب للاطفال وبعنا الحمار وخروفا . باختصار ، لقد افلس رمضان قبل حتى ان يدخل طور النقاهة . كان لونيس يعمل على انقاذ اخيه فينفق بدون موجب وبدون حساب . كان يأتي باللحم.وكان الاطفال

هم الذين يأكلونه. وكنا نعد القهوة، ولم يكن المريض يشرب منها سوى قدح واحد . ولما اصبح رمضان قادرا على الاكل لم يجد مؤونة ولا مالا . آنذاك اقترض بربا قدره خمسون بالمائة حتى يسترجع قواه ويعيل ذويه . كان فصل الشتاء قد حل واضطر الى ان يقترض باستمرار حتى فصل الربيع .

وعندما استعاد قواه وعنفوان شبابه امكنه أن يقدر في جزع مدى عمق الهويّ الذي اغرقه فيه المرض . كان البؤس يتعقبه . وللمرة الأولى منذ القسمة ، ذهب الى القاضي مكتئبا مغموما ، وامضى بابهامه اسفل ورقة اعتراف بدين . رهن حقله ومنزله . في ذلك اليوم ، وكان يوم سوق ان لم تخن فورولو ذاكرته ، حاول ابوه ان يتغلب على كربته فعاد بشُك من الكرشة. وقد بدا مرًّا مذاقها للجميع .

وبعد ذلك بمدة ، غادر رمضان القرية ذات صباح تراكا اهله في رعاية اخوه وسافر الى فرنسا للعمل بها. كان ذلك الملجأ النهائي والامل الاخير والحل الوحيد. كان يعلم حق العلم انه ان ظل بالبلاد فان الدين سيتضاعف مثل كرة الثلج ولا يلبث ان يجرف معه ارث العائلة المتواضع جرفا ، كأنه السيل الجرّار .

# 2

لم يكد احد من ابنائه يتوقع ذلك عشية الرحيل . وشاءت الصدفة ان يستيقظ فورولو اثناء الليل . لم يكن ابوه نائما . كان يدعو الله في الظلام. كان يدعو بصوت مسموع راجيا من العلي القدير ان يكون به رؤوفا رحيما ، وأن يأخذ بيده ، وان يزيح العقبات من طريقه وأن لا يخذله . ثم يتوسل في حماسة اليائس ان يشمل اطفاله بعنايته . كان صوته في هدأة الليل خفيضا عميقا . كان كل طلب مشفوعا باعتراف مثير. كان رمضان يصور فاقته وتعاسته . وبدا لفورولو ان كائنا ماورائيا يحوّم فوقهم ويسمع كل شيء . كان متحيرا مرتبكا . كان حسبه ان يمد يمينه حتى يلمس اباه ، لأنه كان دوما ينام الى جانبه . ورغم ذلك حبس انفاسه ولم يحرك ساكنا . كان يتساءل عما يحدث . كان بث ابيه وانكساره شجا في حلقه واذا الدموع تسيل في صمت على خديه .

ولم يغمض له ، مادام الدعاء ، جفن . حاول ان يكشف عن الكرب الجديد الذي ينوء على العائلة . ولما لم يقف على شيء ، حدّث نفسه بأن

جميع الآباء ربما يدعون في سرهم هكذا عندما تواجه اسرهم كثيرا من المتاعب ــ وهو ما كانت تشكو منه اسرة منراد ــ وكان يعلم ذلك حق العلم . آنذاك ، ومن صميم فؤاده ، ضم دعاءه الى دعاء والده ونام دون ان يدري كيف نام .

وفي صبيحة اليوم الموالي ، نهض آخرهم ، كالمعتاد فوجد امه واختيه جميعا يبكين . لقد سافر الاب عند مطلع الفجر . وحتى لا يزداد اسى على اساه فضّل ان ينطلق فلا يعلم به احد ولا يقبّل احدا . كان قد ارسل قندورته وبرنسه الى صديق من اصدقائه . رحل في جمازته وبنطلونه الفرنسيين وكان اعطاهما اياه ابن عم له ، وشاهدوه يرقعها في الاسبوع الماضي بكامل العناية .

تذكر فورولو ما كان سمعه اثناء الليل . وقالت له امه وهي تبتسم ابتسامة بائسة ، انها قد سمعت ذلك هي ايضا وبدت عليها غبطة ملحوظة وهي تتأكد ان آبنها لم يكن نائما . أما البنات فقد تملكهن بعض الخجل من سوء سلوكهن . فبما انهن لم يستطعن الافاقة ، فهن لا يحببن والدهن ؟ وفكر فورولو : كلّا ! هذا لا يدل الا على ان امي لا تستطيع ان تعول عليهن ، ولكنها تستطيع ان تعول عليّ انا مدّة غياب ابي .

ومنعه تفكيره ذلك من البكاء مثل اخواته فهوّن عليهن قليلا ثم ذهب الى المدرسة . لكن من حين الى آخر كان شيء ما ينقبض في جوفه وفي صدره ، ويبدو وكأنه يصعد الى حلقه .

وبعد مرور اثنين وعشرين يوما على ذلك وصلت الرسالة الاولى . سلّمها الينا الامين . لم يجرؤ احد على فتحها قبل الساعة الرابعة ، في غياب فورولو ، وكان في قاعة الدرس . اخذ الرسالة من يد بيّة وقبّل الظرف . كانوا جميعا يحيطون به. كان اخوه الصغير ددار يشده من جبّته قائلا:

« اسرع ارني ابي » ! كان مترددا ــ كان في الاعدادية ، لكن الرسالة أمر عسير ، ينبغي شرحها . فقرر لمزيد من التحرّي ان يستنجد بواحد من القدماء ممن تخرج من المدرسة محرزا على الشهادة الابتدائية . قبل عالمنا دون تردد . وحضر ، وفتح الظرف بيد ثابتة واخذ يترجم . وتبين فورولو في الاثناء انه قادر على ان يفعل مثل ما فعل . كانت عيناه تلمعان من السرور . لم تكن تزعجه الاعبارة « لا ينبغي ان تقلقوا » .

الاب « في صحة جيدة » و « يرجو » ان يكون اطفاله « كذلك » . لقد وجد عملا . ولن يلبث حتى يبعث ببعض المال . ويطلب من اطفاله ان يتحلّوا بالرصانة وان يطيعوا امهم. لا ينبغي ان تقاد العنزة الى حقل الزيتون حيث فسيل الطلوع الفتية . لا ينبغي اغفال تذكير شجر التين في الوقت المناسب . الرسالة مليئة بالتعليمات . انه يتوجه بأوامره تماما كما لو كان حاضرا ههنا. ان شجرة المرّان الفلانية يجب ان تُحَتّ اوراقها قبل غيرها . وشجرة التين الفلانية يجب ان تسقى عند بداية القيظ . ويخصص علف المكان الفلاني للعنزة ، اما الاخر فيباع . تلي ذلك اسئلة شتى عن مدخرات المؤونة المخزونة بالمنزل ، وعن الجيران وعن عمنا. ويختم بـ « السلام من العائلة بالتمام » فردا فردا. و « السلام من الكاتب » وهو من كتب الرسالة باملاء رمضان .

كلهم فرح مسرور . فالاسرة قاطبة مجتمعة حول التلميذين ، ترى الاب عبر ورقة الكاغذ . واذا هم يردون على الرسالة فورا . كان لهم كل ما ينبغي لذلك . جلس المحرز على الشهادة تراقبه عين فورولو المتيقظة . طرح ورقة بيضاء على كتاب قراءة قديم وغمس ريشته في المحبرة وقد امسك بها فورولو . لم يكن فورولو يجرؤ ان يحبّر الرسالة الاولى . كان يعلم انه توجد بعض القوالب الجاهزة المتعارفة ، وكان يجهل تلك القوالب . عزم في قرارة

نفسه على حفظها وعلى ان لا يستنجد بعد ذلك في مراسلاته بأي كان. وتعلم اذن كيف ينهي الرسالة بـ « الف سلام » وبـ « ابنك المخلص » وبـ « ردّ الجواب على الفور». ولم تتح له غيرته ان يشكر رفيقه شكرا جزيلا بل نبهه في صراحة الى وجود خطأين من اخطاء الرسم . وفي اليوم الموالي حمل الرسالة الى المدرسة ومنها كان ينبغي أن تسلم إلى ساعي البريد. اندهش المعلم ان لم يجدها بخط تلميذه وقال له إنّه كان يضنه قادرا على ان يكتب الى ابيه . ولكن بعد ذلك بحوالي اسبوعين ، تقدم الى معلمه برسالة ثانية وقد تصدر الظرف على امتداده عنوان ابيه ، عيّنة من احسن ما خطه قلمه، : «منراد رمضان ، 23 نهج دي لا قوت دور — باريس 18 » .

القى المعلم نظرة خاطفة وادرك ان فورولو ينتظر شيئا ما . قال له احسنت ! وانصرف فورولو .

كانت ثالث رسالة كتبها فورولو الى ابيه تبدأ هكذا « ببالغ السرور أكتب اليك لأعلمك اني نجحت في الشهادة ... » لقد بدت له هذه الصيغة التي تعلمها في المدرسة خلال تمرين انشاء : « هب انك من الناجحين ، بشّر صديقا لك بالخبر » جميلة في حد ذاتها وجديرة ان تقرأ في باريس . ولما كانت تترجم عن الواقع فانها بدت له اكثر روعة وجديرة ان يخطها يراع متحصل على الشهادة جديد . كان فخورا مسبقا بما قد تحدثه في « كاتب » ابيه .

كان قد نجح توا في الشهادة مع اثنين من رفقائه. جرى الامتحان في «فور ناسيونال» على بعد حوالي عشرين كيلومترا من القرية . كانت مدينة باتم معنى الكلمة فيها كثيرا من الفرنسيين ، ومبان شاهقة وشوارع جميلة ومغازات جميلة ، وعربات تسير من تلقاء نفسها ، اين هو من تيزي ؟ بدا

له كل شيء جميلا نظيفا عظيما ؟ ويقول الناس عنها انها قرية صغيرة ! كان له من الوقت ما سمح له بزيارة المدينة لأنه ذهب اليها عشية الامتحان . كان مدهوشا مسرورا لملاحظته انه يتقن اللغة الفرنسية . وكان متعجبا لسماعه اطفالا صغارا يتقنونها في مثل حسن اتقانه لها ولكن بجرس الذّ وقعا على السمع .

الى اليوم ، ما يزال يسمع مناداة المترشحين : هو ذا المتفقد ، والممتحنون ، عديد من الروامى الحقيقيين . انه الان في القسم يحرر انشاء او يحل مسألة حسابية . وثاب اليه رشده ، وبذل اقصى ما في وسعه ، ونجح ، ثم اجرى الشفاهي ، اين منه خجله المعهود ؟ اجاب . لم يكن خائفا . لم يعد نفس ذلك الشخص . قد لا يعرفه حتى معلمه .

وعاد هو ورفيقيه الى القرية ليلا وقد انهكهما التعب . ثم كانوا أول من استيقظ لاعلان النبأ الى المعلمين والتلاميذ . كانوا نجباء، كان فوررولو يسبح في غمرة من السرور ويهز اعطافه من الزهو . ما كان يحب ان يجهل ابوه ذلك .

ووصله الرد المرتقب مع مبلغ مائتي فرنك . لقد سلّمت الرسالة والنقود الى صديق عائد من فرنسا كان يسكن في مكان في نفس عنوان ابيه. وعندما وصل ذلك الصديق الى القرية ، ذهبوا يسألونه في بيته فقبّل فوررولو « نيابة عن ابيه » وسلم النقود الى الام . ثم اخرج من حقيبته فهرسا لدار من دور الاحذية ، ورواية غرامية « كُلّكسيون غولْواز» ملفوفة بخيط. قال له : واذن فيبدو انك متعلّم ؟ اذن فاليك هذه ، هي كتب ارسل بها اليك والدك . انه مسرور جدا ، هل تعلم ؟ واخذ فوررولو الاضبارة .

# 3

في شهر اكتوبر من السنة الموالية ، بدل ان يغادر فورولو المدرسة مم على ان يعود اليها ليعدّ مناظرة المنح الدراسية . كان يعلم في قرارة نفسه حق العلم انه قد يكون اجدى له وانفع لو ظل بالبيت راعي اغنام . لكن بما ان رفقاءه المحرزين على الشهادة لم يغادروا المدرسة ، فما كان يسعه الا ان يقلدهم . ثم ان الاغنام الوحيدة كانت العنزة وجفرها . ولم تكن تلك العنزة في حاجة الى حارس خاص . فقد ضموها الى قطيع القرية ، ويمكنه ان يتغيب نصف يوم كل شهر او كل اربعين يوما ، فيقود الحيوانات التي الفت ذلك القطيع الى المشمل (22) وبعدها يظل هانىء البال حتى يحين دوره من جديد . أما في المنزل فليس من العسير جدا اطعام العنزة . يكفيها كيس صغير من ورق المرّان صيفا وبعض اضغاث العشب في فصل الربيع ، وحزمة من اعراف الزيتون او البلوط شتاء ، وحزمة من العلف

22) الكلمة مثبتة في النّص الفرنسي (المعرب)

عندما يكون العلف متوفرا . وان لم يتوفر لفورولو واخيه ، بعد ذلك من الكسكسي باللبن ما يفي بالحاجة ، فيمكن آنذاك رميها بالجحود .

انه موقن ان الرعاة يتعاطون اعمالا اخرى غير مراقبة اغنامهم : انهم يرقبون الحقول ، ويذهبون في طلب الحطب ويلتقطون الزيتون او التين حسب الفصول والمواسم الا ان فورولو لم يرزق اختين كبيرتين عبثا . فبوسعه ان يذهب الى المدرسة دون ان يحرج احدا . فامه واختاه ينهظن باعمال الحقول ، وأما ابوه فيرسل بانتظام المائة وخمسين فرنكا او المائتين ، الضرورية لشراء الشعير . أما عمّه لونيس فيجتلب لهم من السوق جميع ما يحتاجون اليه .

انه لا يغبط اولئك الذين غادروا المدرسة بعض الغبطة الا في موسم جني الزيتون .. فطيور السمان والزرزور تنقض على غروس الزيتون بالالاف . وفي حين يهرع الرجال الى نفض الثمار ، وتهب النساء الى التقاطها والحمير الى حملها ، يتهالك رعاة الغنم على الصيد في لذة وشغف. وتغمر مساحات عريضة بالأحابيل . كلّ ينصب منها مائتين او ثلاثمائة او حتى خمسمائة . ويخرج الاولاد صباحا في برد لاذع كالصقيع يبدلون الطعم — ويتكون من حبات زيتون غليظة لماعة — ثم يتجمعون فرقا تحت زياتين عظيمة ، فوق هضبة مجاورة ، حيث يمكنهم منها مراقبة فخاخهم . ويوقدون نارا يدفئون بها اطرافهم وأناملهم مترقبين لحظة قيامهم بدوريتهم ترقب المحموم .

لقد شهد فورولو هو الاخر مثل تلك اللحظات النابضة الزاخرة بالامل ، خلال ايام العطل . يفقد الصغار بسببها شهيتهم الى الطعام ولا يحسون بالبرد أو المطر او الاشواك . وعندما يرون زرزورا يحط على العصا اللدنة المغروسة في الارض ويجذب الخيط ، فقد استعاضوا عن اتعابهم .

فتراهم يذبحون الطيور وينتفون ريشها ويملأون منها طرابيشهم الا انهم يعودون بآخر طيور دوريتهم الأخيرة احياء . واذا صادف ذلك خروج التلامذة امام المدرسة ، فان الرعاة يذهبون الى ملاقاتهم حتى يحسدوهم على مصيرهم .

وقد حاول فورولو غيرما مرة ان ينصب في حقله الاحابيل ولكنهم كانوا يسرقونها وهو في قاعة الدرس . ويبلغ منه الغضب مبلغه عندما يلاحظ اختفاء الانشوطة ومعها طائر الزرزور الاسير . وكان يثأر لنفسه متمنيا من صميم فؤاده رحيل تلك الطيور « المهاجرة » — وهو لفظ كان يحلو له ان يفسره لجميع الناس — منتظرا شهر مارس وهو شهر يؤذن بنهاية موسم الصيد وموسم جني الزيتون .

وإذ ضحى بهذه الملذات ليتفرغ للدراسة لم يعد يملك الا ان ينجح في المناظرة. وقد نجح بتفوق . كان موضوع الانشاء مناسبا له تماما . « ابوك العامل بفرنسا ، رجل امي . ارسل اليك يحدثك عن المصاعب التي يلاقيها من يجهلون القراءة والكتابة ، وعن اسفه العميق لأنه ليس متعلما ، وعن منافع التعليم » . ولما كان أبوه في تلك الحالة بالذات ، فقد أمكنه ان يتصور حيرته وارتباكه عندما كان يشتري ما يلزمه من السوق وعندما كان يبحث عن شغل ، وعندما كان رئيس العمال يأمره أمرا . وامكنه ان يتخيله وقد تاه في محطة من محطات « المترو » او في نهج من الانهج . اعترف له بتعذر الحفاظ على اسرار العائلة، بما انه كان ينبغي له ان يستعين بمن يكتب له رسائله . وباختصار لمّا لم تكن الافكار تعوزه ، فإنه حرر انشاء حسنة . اما عن المسائل الحسابية ، فقد كان الجميع يثقون بمهارته فيها . كانت مادته المفضلة . وتفوق في الشفاهي وعاد الى ذويه موقنا من نجاحه .

كان بعد يفكر في الجملة المنمقة التي بها سيزف الى ابيه خبر نجاحه . لكن لم تسنح له هذه المرة فرصة استعمالها . لم يدم فرحه طويلا . كان شاب من شباب القرية يدعي عمار قد عاد توا من باريس ، حاملا معه اخبارا سيئة . صادف فورولو قريبا من المقهى ، اخذ الولد يده يقبلها مرحبا به . تصنع شيئا من الحزن وقال :

ــ جئت تسألني إن كنت رأيت اباك ؟ نعم ، اطمئن ! لقد رأيته. عد الى أمك فآتني بها ، لديّ أمانة اريد ان اسلمها اليكم .

ــ هل سلمك رسالة ؟ هاتها !

ــ هي في جيبي . فلتأت أمّك أولا ، أسرع !

جاءت أمي على عجل . قال لها الرجل :

ــ نانا فاطمة ، اطفالك محظوظون جدا . قدّمي قربانا آخر الى قبّة القرية . لقد كاد زوجك ان يهلك . لكنه الآن قد نجا فلا تخشي شيئا .

واكفهر وجه المرأة المسكينة وابنها من الشحوب .

ــ ماذا حدث له ؟ أأنت صادق ؟ ان كان ميتا او في خطر ، فأصدقني الخبر ، أنا امرأة شجاعة . لم يكتب لنا منذ شهرين .

ــ كلا ، لقد قلت لك انه الآن معافى . لقد جرحه في المعمل طُنْبُر (23) وقد نقل الى المستشفى ولن يلبث حتى يعود الى شغله . هاك . هذه مائتا فرنك ارسل بها اليكم.

ــ امازال بالمستشفى ؟

ــ كان على وشك الخروج منه في الاسبوع الماضي .

---

23) الطنبر عربة ذات عجلتين تستعمل للنقل وتفرّغ بأن تقلب الى الوراء . (المعرّب)

والمال ، هل كان معه ؟

ـــ أوه ، لقد طلب مني ان أسلمكم مائتي فرنك وهاهي . يمكنني ان ازيدكم عليها ان شئتم . وهذه الرسالة يافورولو؛ نعم لا تقلقوا بسببه . لقد تألم لكنه سيشفى عما قريب . لم يرد الله ان يحرم اطفالك من ابيهم .

وعادت الام وابنها الى البيت في حزن وغم . وعندما عادت الاختان من الحقل ، اجتمعوا حول الكانون ؛ كان القلق باديا على كل الوجوه . كانت فاطمة تمسح عينيها من حين لآخر بطرف فوطتها. كانوا يبكون في صمت لأنه ينبغي اخفاء هذا المصاب عن الجيران .

وعاد العم لونيس مساء . لقد علم الخبر مع كثير من التفاصيل . كان يريد ان يطمئن الاطفال . ولم يكن هو نفسه مطمئنا كل الاطمئنان . فهل المسألة اخطر مما قال عمار ؟ ربما اخفى شيئا ما . وتوسلت الام الى لونيس ان يقول لها كل ما يعلم . واقسم لونيس ان حال اخيه ليست بالتي تدعو الى القلق . اراد ان يصطحب معه الولدين للعشاء عنده الا أن فاطمة رفضت . فخرج مغضبا . كان كلّ منهم حزينا موتورا . كان اليأس شجا في جميع الحلوق . لم تكن الرسالة تحتوي على ما يسر . انها تعليمات مقتضبة : « ارسلت اليكم بمائتي فرنك . حاولوا جهدكم ان تقتصدوها اطول مدّة ممكنة. لن ارسل لكم بشيء قبل بضعة أشهر. واذا اعوزكم المال فبيعوا العنزة وشجرة ... »

وفي اليوم الموالي ، كان المعلم بالمدرسة يشرح خلاصة في الاخلاق. قال ما معناه « انما الطفولة سن الهناء والسعادة . ليس لكم ايها التلاميذ من مشاغل اخرى غير التفرغ الى المعرفة واللهو . ونومكم هادىء مطمئن . فليس لكم ما يشغل بالكم واحيانا يمضي والد أحدكم ليلة باكملها دون ان يكحل النوم جفنيه ، تقض مضجعه شتى الصعوبات .

انه يفكر في ابنائه وفي الدائنين يزعجونه وينكدون عليه، وفي الايكوفان الفارغ. أما انتم ففغير مبالين بشيء ، انكم لا تعرفون اي لون من الوان هذه الكروب. كان فورولو يحدث نفسه بينما كان معلمه يتكلم ــ هذا غير صحيح، غير صحيح . كان يود لو قال له ذلك . كلا ! فالاطفال أشد رقّة وحساسية مما قال . فهم يشاطرون أهلهم وذويهم ما يقاسونه من ضنك.

وسرعان ما تنوقلت أغلب الأخبار بشأن رمضان، مغرقة الأسرة المنكودة الحظ في غمرة من الاسى . كان بعضهم يقول إنهم ربما بتروا له رجلا وربما الاثنتين . وكان بعضهم يقول انه كف بصره . واخيرا كان بعضهم يزعم انه هلك . ذهب لونيس الى تيزي ــ وزو، وارسل إلى صاحب النزل الذي كان يسكن به اخوه برقية خالصة معلوم الاجابة . وعادت البرقية بعد مدة قصيرة مشفوعة برسالة . لا يمكن لفرنسي ان يكذب . وانتهى الجميع في نهاية الامر الى الاطمئنان .

# 4

مضت على وجود رمضان بفرنسا سنة ونصف . وذات مساء ، من شهر ديسمبر ، كان فورولو عائدا من الحقل صحبة اخيه الصغير وهو يقود قطيع الماعز بعد ان ارعاه . وقريبا من القرية ، صادف الطفلان ابن عمهما الكبير احسان وكان متجها نحو المسقى ليورد حماره . مال احسان على ددار ، وقرصه من خدّه قائلا :

— امضْ بسرعة الى المنزل اسبق اخاك ، لقد وصل ابوك

وتسمر الطفلان وسط الدرب ، مشدوهين من وقع المفاجأة ، لا يجرؤان على حركة أو كلام بينما آنصرف احسان في سبيل حاله مطمئنا باسما . وانتفض فورولو فجأة كمن يستيقظ من سبات ، وانطلق لا يلوي على شيء ، تاركا القطيع ، ناسيا ددار وكان يبذل جهودا عظيمة حتى يلحق باخيه البكر .

كان الاب رمضان بالمنزل وحوله بعض الجيران والجارات في حين كانت فاطمة واقفة عند عتبة البيت تستقبل الزوار وقد تهلل وجهها من البشر.

وشقّ الاطفال طريقا لهما حتى ابيهما فقبّلهما وهو يضحك ضحكته القوية .

قالت له امرأة عجوز: إن فوررولو سلّمه الله لك قد اصبح الآن رجلا.

ــ الله يسلّمك ! نعم ، لقد كبر . وقد آن الآوان . فانا قد اصبحت رجلا فانيا .

ــ أنت ؟ أنت اشد صلابة من ذي قبل !

والواقع ان رمضان تغير . فقد سمن ، وصار ابيض الوجه واليدين أو يكاد يترقرق فيهما ماء النضارة كما لو أنه لم يكن مريضا حقا .

قالت فاطمة : ومع ذلك فقد كان هنا أيضا يأكل حتى الشبع . فجميعكن تعلمن انه لا يعوزنا ــ والحمد لله اي شيء .

وأجابوها : ليس ثمة من مناسبة ممكنة بيننا نحن والفرنسيين .

كان فوررولو يستعجل ان يرى جميع اولئك الناس ينصرفون حتى يجد نفسه وحده مع ابويه ، في زاوية من زوايا البيت ، كان ثمة كيس ضخم مطروح على الارض وحقيبة غريبة . كان بصره يتجه غصبا عنه تلك الوجهة . أما ددار ، وقد جلس في غير كبير كلفة ، فقد أخذ يعمل اسنانه واظافره في الخيط الذي يشد به فوهة الكيس بكل اصرار وعناد . وحاولت زازو ان تمنعه من ذلك غيرة ليس إلّا فنتجت عن ذلك معركة استرعت اهتمام الكبار برهة .

على ان رمضان كان مضطرا الى ان يخضع لاستجواب جميع من كان لهم اقارب بباريس . كان يرد على الجميع في لطف وكياسة . وأدّى ما حمل من الامانات الى اصحابها . كان آخر المنصرفين ، وقد اغتبط الاطفال لذلك ايّما اغتباط ، العم لونيس . صحيح أن فوررولو اهتم بالنقاش الجاري بين الاخوين بما انه كان يتعلق بالحادثة وما عاناه ابوه في المستشفى من

آلام ، لكنه كان يعلم ان أمامه متسعا من الوقت كي يطلب اعادة الحكاية على مسمعه . أما في هذه الآونة ، فاهم ما يشغل باله انما هو تفتيش الامتعة . وكان ايضا مستعجلا يريد الحديث عما احرزه في المدرسة من نجاح ، في كنف جو حميم .

وفتحوا الكيس واخرجوا منه حوالي اثني عشر رغيفا من الخبز وبعض الملابس . كانت الحقيبة ايضا مكتظة . وقطع الخبز قطعا وزعت على الجيران . كان فورولو واخته تيتي غادين رائحين يذهبان الى هذا المنزل ثم الى ذاك . وسلم العم رغيفين كاملين . ثم عمد رمضان ، في نفس تلك الليلة ، قبل ان ينام ، الى توزيع الملابس على اطفاله . فلبسها هؤلاء على الفور كأنهم حقا في كرنفال . كان بعضهم يسخر من بعض . ويضحكون ويتبادلون القبلات ، ويغضب بعضهم ، وأخيرا نام ددار بحذائه الذي ألبسوه إياه، وبصدرية حمراء لمّاعة وبيرية تغطّي الأذنين. أما زازو فقد توارت عن الانظار داخل جلباب مخصص لأمها ، كان رأسها فقط هو الذي يبين وكان على ذلك الرأس شال من الحرير الاصفر تتهدل شرّاباته على عينيها . ورتب فورولو ، شأنه في ذلك شأن كل فتى منظم ، حزمته فوق مخدته ، مانعا أيّا كان أن يمسّها . وضمت كلّ من الاختين الكبريين : بيّة وتيتي نصيبيهما بين وركيهما وتظاهرتا بأنهما تنصتان الى ابويهما باهتمام .

وفعلا ، فقد كان رمضان يحكي للمرة الثانية كيف جدّ الحادث . كان ينوي دون شك ان يشد اليه اهتمام اطفاله وخاصة منهم فورولو ، فاخرج حافظة أوراقه ، وسحب منها رزمة الاوراق قائلا :

ــ هاك ، اقرأ هذا ، ان كنت حقا متعلما . انظر الى اين ذهب أبوك ... وما تحمله من الالام .

نظر فوررولو الى الوثائق الا انه لم يفقه منها شيئا . كان ثمة رأس الورقة : « مستشفى لاريبوازيار » وكانت بخط واضح مفهوم . وكذلك ختم بنفسجي اللون . ولو اراد ان يقرأ البقية لاستوجب منه ذلك ربما ان يستدعي الطبيب نفسه . كانت الوثائق شهادات طبّية . فحص فوررولو كلّ ورقة ورقة فحصا مليّا ثم اعادها الى أبيه وهو يهز رأسه إستعظاما ، حتى يوهمهم بأنه قد فهم .

ـ أرأيت !؟

ـ نعم .

ـ حسنا ! واضاف الاب وهو يفك ازرار قميصه : هذا هو الجرح. لقد شقوا بطني بأكمله . حدّق فيه اطفاله محملقين . فطمأنهم قائلا :

ـ أواه ! لا بأس ، فقد خاطوه بعد ذلك ولم يبق الآن سوى ندب طويل .

واقترب الاطفال من ابيهم فرأوا فعلا ندبا يمتد على طول بطنه ويشق السرّة . جسّوا الموضع جسّا لطيفا خشية ان ينفتح الجرح، لكن ليس ثمة من خطر كان مخيطا خياطة حسنة .

ثم تناول رمضان الحقيبة واخرج منها لفيفة طويلة من الورق تضم اوراقا عديدة ، كأنها كراس . كانت حروفها كبيرة جميلة . وامكن لفوررولو هذه المرة ان يقرأ ويترجم قراءة وترجمة لا غبار عليهما. وامكن للاب أن يتأكد ان ابنه متعلّم . كان ذلك حكما اصدرته محكمة مدنية في على ضفاف نهر «السّين». وبمقتضاه ، حكم على شركة من شركات التأمين أن تدفع الى « السيور رمضان » مدى الحياة وكل ثلاثة أشهر إيردا مقداره اربعة وسبعون فرنكا .

قال رمضان لابنه : ارأيت أن أباك ليس مغفلا . خسرت قضيتي أمام

قاضي الصلح ولكنني عرضتها على محكمة الاستئناف وكسبتها .

لماذا قاضي الصلح ولماذا المحكمة ؟ ذلك ان منراد كان يعمل في مسابك « اوبرفيليي » كان يعمل بدون انقطاع ، كما كان يفعل في حقله في بلاد القبايل . وكان يعمل ، علاوة على الساعات الاضافية ، كل يوم حتى ايام الاحاد . وكان اليوم الذي اندفعت فيه العجلة على السكة فحصرته والحائط ، يوم أحد . تلقى بعض الاسعافات في غرفة تمريض الشركة ، وظن أنه شفي بعد ذلك باسبوع . لم يكن به أي جرح ظاهر ولكنه كان يشكو آلاما باطنة . استعجل الطبيب خروجه من غرفة التمريض . ولم يكن منراد يرغب في اكثر من ان يعود الى شغله . كان يستعجل بفارغ الصبر كسب ما يمكنه من تسديد ما تخلد بذمته من ديون ،حتى يجتمع باطفاله . واذن فقد خرج وعاد الى المصنع . منذ نهاية اليوم الاول ، وحال وصوله الى غرفته عاودته الالام باكثر حدة من السابق . واسعفوه من جديد وهو بين الحياة والموت ، في مستشفى لاريبوازيار . واستوجب الامر اجراء عملية جراحية . امضى هناك ثلاثة اشهر ، ثلاثة اشهر طويلة مريرة كلها آلام وهواجس ، بعيدا عن ابنائه وعن بلاده .

وعندما طالب الشركة بما يدفع عادة الى المتضررين من حوادث الشغل من تعويضات ، رفضت فاقام عليها الدعوى . وساعده في ذلك بعض ذوي البر والاحسان ونصحوه او دلّوه حيث ينبغي ان يتجه . وبعد عدد من المغامرات لن ينساها ابدا ، حصل على « التأمين » الذي يستحق ، وعلى ايراد مدى الحياة لم يطلبه ابدا ولا كان يطمع فيه . ولو أمكن لفورولو ان يتخيّل هذه القصة في مناظرة المنح ، لكان اضاف دون شك فقرة اخرى الى انشائه ولحكى فيها جميع ما لاقاه ابوه من هموم ومتاعب وهو ما كان قطعا سيندهش له ممتحنوه ايما اندهاش .

ولما كانت جميع هذه الامور التي يتحدث عنها رمضان بعد في عداد الماضي ، فقد انضم كلّ منهم ، في نهاية الامر الى رأي فاطمة . كانت فاطمة لا تخفي ابتهاجها بتلك الحادثة التي درّت على العائلة حوالي ثلاثة آلاف فرنك دفعة واحدة .

كانت تلك الثلاثة آلاف فرنك ، والحالة هذه ، ربما تستوجب من الأب ان يتغيب سنة اخرى وقد اعترف رمضان بذلك . لقد عاد من فرنسا والبطن منه مخيط ، الا انه عاد على قدر لا بأس به من الثراء يكفي لتسديد ديونه والعود الى سالف طمأنينته . كان يمتلك اكثر من عشرة آلاف فرنك ! وكان ايراده يضمن له نشوقه حتى الممات .

لقد نصحه الاطباء بأن يخلد الى الراحة المطلقة سنة كاملة وان يتغذى تغذية صحّية وفيرة . لابد انهم كانوا يجهلون ان القبايلي غليظ ، لا ينصاع لتعليماتهم الا عندما لا يكون له من القوة ما يجعله يعصي اوامرهم . وكان رمضان يعلم في قرارة نفسه انه في صحة جيدة . كان حقله ينتظره. وكان اصدقاؤه واعداؤه يترصدونه . وكان يتهيأ كي يظهر للجميع انه ما يزال قويا كسالف عهده . فلم يستمح لنفسه بأكثر من يومين من الراحة .

كان ذلك في شهر اكتوبر . كان فورولو قد غادر المدرسة واخذ يصاحب اباه الى الحقل بانتظام ويقاسمه اعماله . لقد اشتروا ثورين وخورفين وحمارا . كان ينتظر كلّ فرد من افراد العائلة كثير من الاعمال . كانت ايام الهناء كأنها تودّ ان تعود من جديد ، وكان الاب منراد سعيدا لأنه وجد في ابنه معاونا لا يستهان به . ولم يلبث أن ارتأى ان يتحدث اليه كما يتحدث الى فتى شاب لا كما يتحدث الى طفل صغير . وفي ظهيرة يوم من الايام كانا معا في البيدر قريبا من «القربي» الذي يحتوي على غرابيل

التين . وكان الاب يرقع بردعة الحمار وقد قرضتها الفئران اثناء غيبته الطويلة .

ـ كما ترى يابني ، ان زوج الثيران ملك لنا . وكذلك الحمار والخروفان . يمكن ان اشتري ايضا خروفين آخرين فنحن الآن اثنان . وليس ذلك مما يتجاوز طاقتنا . في فصل الربيع سنبيع الثورين ونشتري زوجا أصغر . وسنبيع ثلاثة خرفان . كما يمكننا ان نقتني ايضا بقرة . سيكون لنا ايضا نصيب قليل من الزيت فضلا عما نستهلكه . في الصيف القادم سأذهب والحمار الى بيع الخضار في حين تهتم انت بالماشية والارض مع اختيك . ولن تلبث حتى تتخذ بدل الحمار بغلا . آنذاك سأتعاطى التجارة وسترافقني انت من حين الى حين في الاسواق حتى تلمّ بامورها . واعتقد اننا ان شاء الله لن نظل من التعساء .

وبقدر ما كان الاب يسترسل في عرض مشارعيه، كان فوررولو يتابعه في شيء من الدهشة ، كانت تنفتح امامه آفاق لم تكن لتخطر له على بال . كان يرى نفسه وقد اصبح فلاحا ويرى ان الرخاء قد يحل بالبيت بفضله . لكنه كان يرتاب في ذلك قليلا . كان له هو الاخر حلم آخر . لقد تصور نفسه دوما طالبا فقيرا ، ولكن نابها . وتعود على صورة ذلك الطالب ، وانتهى به الامر الى التعلق بها . وها هو ذا ابوه يفلح في بعض دقائق ، وبحجج دامغة ، في ان يطردها طرد الاشباح . ورغم ذلك غمغم تبرئة لذمته :

ـ وماذا لو اسندوا اليّ المنحة ؟ يمكنني عندها ان أواصل دراستي دون أن أكلفكم أية نفقة . لقد قال لي المعلم ذلك .

ـ أولا ، لم يسندوا اليك أيّ شيء بما أن العطلة الصيفية قد انقضت ولم يكاتبوك في ذلك ؛ ثم حتى اذا افترضنا ان المال قد وصل ؛ أوتظن اننا

خلقنا للمدرسة ؟ نحن اناس فقراء ، أما الدراسة فمخصصة للاغنياء . فهم وحدهم الذين يمكنهم ان يستمحوا لانفسهم إهدار عدّة سنوات ، ثم ان يخفقوا في خاتمة المطاف ويعودوا الى القرية ليحيوا حياة الكسل والخمول . اليس ذلك شأن ابن سعيد ، المرابي ؟ وفي آقوني ، إثنان او ثلاثة من هذا الصنف . لقد استخبرتُ عن ذلك . الامر صعب جدّا ، فالفرنسيون لا يمنحون المنح هكذا لوجه الله . أما اذا بقيت ههنا فستنتج قدر ما انتج ولن يعوزنا شيء . وبعد سنتين او ثلاث ، سيكون لك من القوة ما يكفيك للذهاب الى فرنسا للعمل بها . سترى آنذاك أنك بشهادتين ستدبّر امورك أحسن مما فعلنا نحن جميعا . لن تعرف ما عرفت من بؤس وشقاء. ان فرنسا رائعة الحسن ، سترى كل شيء وستفهم كل شيء . وعندما تعود ، نزوجك . هذه هي الحياة التي اقترحها عليك . وهي الوحيدة التي تلائمنا . وسيكبر اخوك ، وستكون له مرشدا . وتتزوج اختاك . وتعوضني في كل كبيرة وصغيرة ويمكنني ان اموت مرتاح الضمير .

كان فورولو ينصت الى ابيه في صمت معجبا بهذه الحكمة . عندما تحدث ابوه عن الزواج ، طأطأ رأسه حياء وقد احمر وجهه من الخجل . كانت عينا رمضان على البردعة التي يخيطها . وفرغ من كلامه ، ولم يعد ثمة اي داع للاجابة بما ان لسانه كان ينطق بالحكمة . صمتا هنيهة ، كل منهما يفكر في هذه الاقوال الخطيرة ؛ ثم اشار رمضان على ابنه بعمل ما ينبغي القيام به ، فهبّ فورولو واقفا ممتثلا ، وانصرف مبتعدا .

وعندما عادا الى القرية ، وجدا رسالة من مدير معهد تيزي — وزو تنبئهما ان مطلب المنحة قد قبل وانهم قد خصصوا بقعة لصاحب المنحة الجديد ، وان عليه ان يتقدم اليهم فورا . هكذا تشاء الصدفة اذن لامتحان الناس .

وذهل الولد وهو الذي كان قد بدأ يتسرب اليه اليأس والقنوط . وعادت الى ذهنه صورة ذلك الطالب الفقير بكل ما فيها من مغريات . صار تعلقه بها الآن اشدّ وقد غدت على قاب قوسين او ادنى من التحقيق . بدأ الأب نفسه يؤمن بذلك . فهل هو من الغفلة حيث يترك للبايلك (24) المائة وثمانين فرنكا التي تتهيأ الحكومة لمنحها لابنه كل شهر ؟ كلا ! أليس كذلك ؟ .

لا هو ولا فورولو اراد العود الى ما سبق الخوض فيه في الحقل . تواطآ على نسيانه . ولم يتحدثا بعد ذلك الا عن المنحة ، والمدرسة ، والدراسة ، كان فورولو بطل السهرة . نظرت اليه اختاه في احترام واجلال . واعدت فاطمة عشاء خاصًا تكريما له . بينما انتحى هو وأبوه ناحية من البيت يتحدثان في امور جدّية . كان ينبغي الاستعداد للرحيل . لم يكن اي شيء يسيرا ولكن المال متوفر بالمنزل . وقد قال رمضان وكأنه ينطق بحكمة من الحكم « بالمال تتحقق جميع الاعمال » .

كان رمضان محقا في ذلك ، فمنذ الغد بدأ العمل الجدّي . ذهبوا الى المدير للاسترشاد والترسيم . وارسلوا من يشتري اللوازم من مدينة الجزائر وانفقوا كثيرا من المال . وامكن للطالب الجديد بعد ان اقتنى جميع ما يحتاج إليه أو يكاد، أن يدخل إلى المعهد بعد عطلة «التّوسان» (25).

ولم يكن الأب منراد مغفلا . كان يعلم حق العلم ان ابنه لن ينتهي الى شيء . لكن سيتغذي فورولو في المدينة تغذية احسن مما لو كان بين اهله . وسيكبر بعيدا عن حياة الشظف التي يعانيها المراهقون في قريته .

---

24) الدولة (تعليق في النص الاصلي الفرنسي)

25) عطلة جميع القدّيسين

وبما ان الدولة رأت مساعدته على تربيته فلا آعتراض لرمضان على ذلك . كان المهم عنده ان يرى آبنه سرعان ما يستوي رجلا حتى يقاسمه مهمة إعالة الأسرة .

ولم يكن فورولو من جهته يرى في ذلك ادنى خبث . كان صادقا . وذهب الى المعهد بكل براءة ناويا الحصول على الاعدادية ثم الدخول الى مدرسة ترشيح المعلمين كي يصبح معلما .

# 5

رحل فورولو ، تاركا اسرته في غمرة من الحزن . كانوا جميعا آسفين على فراقه . وبدا المنزل نفسه اكثر حزنا . وعندما اجتمعوا للعشاء مساء ، تفطن كل منهم الى الفراغ الذي تركه . كان يبدو لهم ان الأسرة أصغر بكثيرا مما كانت عليه البارحة ، كما لو أن الفتى الشاب يساوي بمفرده ثلاثة اشخاص او أربعة . ثم تحدثوا عنه فقط . كانت الاختان تذكّران بما ارتكبتاه من أخطاء في حق ذاك الذي سيكون رجل المستقبل العظيم ؛ وتأسفان لعدم احتمالهما اياه في عديد وعديد من المناسبات ، وتعدان بتدليله مستقبلا . كانت الأم تود لو ارسلت اليه بجميع ما كانت تتناوله من لقم الكسكسي. كانت محتارة تُسائل نفسها كيف سيسوي فراشه تلك الليلة ، كانت محتارة لانه سينام منذ الآن بمفرده ، ولا احد يسهر عليه اثناء نومه . كانت حزينة لمعرفتها انه سيحرم من رعايتها وحنانها . وحاول الاب عبثا ان يطمئنها . كانت دموع فاطمة تترقرق في عينيها . سعل ثلاث مرات حتى يتشجع .

ومع ذلك ، كان فورولو مطمئن البال ، حسن المستقر . كان ينام لأول

مرة في فراش بأتم معنى الكلمة . بعد أن أكل مأكولات لا يمكن لأمه أو لأخيته حتى مجرد تصورها ، كان ابعد ما يكون عن التفكير في أسرته . ، كانت الايام الثلاثة الاخيرة مليئة باحداث ذات بال . لقد عاشها كما لو كان في حلم . وقبل ان يغلبه النعاس كان في حاجة الى ان يستعيدها من جديد في ادق تفاصيلها حتى يوقن ان ليس في الامر خطأ ، وأن سعادته حق .

السبت مساء . إنه في بيته . وقد تسلم امتعته القليلة . كان المدير يعتزم تسجيله ضمن المقيمين . لكن الأب رفض متعللا بأن ليس له ما يكفي من المال . واذن فقد سجل بصفته خارجيا ولكنه لم يعثر له على غرفة للكراء . أما بالنسبة الى المأكل فأمامه المطاعم الصغيرة . وعاد الاب الى المنزل في حيرة من أمره . لعله ينبغي في الاثناء ان يقبل عن مضض النوم في نزل من النزل . تنتظره مصاريف جمّة . رمضان في حيرة من امره . أيترك ابنه يدبّر أموره بنفسه في مدينة ؟ ام هل يعود من جديد الى الاقتراض حتى يتمكن من تسديد نفقات اقامته بالمبيت ؟ ومع ذلك فقد الحّ المدير كثيرا .

الأحد صباحا . إن القدر لا يتخلى أبدا عن التعساء . لقد بدا لفوررولو في شكل وجه عذب جذاب هو وجه عزير . عزير ولد من أقوني وندّ له . وهو تلميذ بالثانوية. لقد سمعهم يتحدثون عن فوررولو وعن منحته فجاء لمقابلته في تيزي . ان اول مقابلة له توحي مباشرة بالثقة . هو اشقر الشعر ذو عينين زرقاوين . أما فمه فيفتر دوما عن ابتسامة من تلك الابتسامات العريضة التي تستجلب الصداقة . وقد وهب ملكة تبسيط اعقد الامور .

قال لفوررولو : — انا ايضا خارجي ، وصاحب منحة مثلك . نحن من بلد واحد . وانا مستعجل كسر وحدتي هذه . وان شئت ، سكنّا معا

وأصبحنا صديقين .

ود فورولو لو قبّله . كان عزير يجابه جميع الصعوبات . ولم يكن الواحد في حاجة الى مقاطعته او مساءلته .

— ليس ابي من الثراء بحيث يقدر على تسديد مصاريف المبيت . ثمة في تيزي — وزو مبشّر بروتستانتي يؤوي التلاميذ الوافدين من الجبل . انا اسكن لديه . نحن حوالي ثلاثين نفرا . لقد حدثته عنك بعد . ستكون لنا غرفة مزودة بالنور الكهربائي ، وطاولة وكرسيين وفراشين . سيقدم الينا كل صباح بعض القهوة والخبز . كل ذلك مجانا . يوجد مقر المبشرين على بعد خطوات من الثانوية .

كان ذلك حقا امرا لا يكاد يصدق . وفسر له عزير أن المبشر رجل صالح ، مهمته مساعدة المساكين ، تقريبا على غرار الاباء البيض . وبالاضافة الى جميع ما كان يقدمه الى اولئك الجباليين البؤساء ، كان يجمعهم كل مساء في غرفة كبيرة ليحدثهم عن أمور الدين ويقدم لهم النصائح ويربّيهم . كان ذلك امرا مدهشا . سرّ فورولو سرورا بالغا . وقبل العرض فورا . وتلقى بعض التوصيات العملية (ما ينبغي حمله من الادباش والنقود ، والكتب) . استمع اليها باذن غير صاغية . وضرب لذلك موعدا غدا صباحا . غادر صديقه الجديد متحسرا وذهب يتم اعداد ما يلزمه ويطمئن اباه زافا اليه الخبر السعيد . وصعب على رمضان هو الاخر ان يصدق ما كان يحكيه ابنه . انها لمعجزة ! لقد هب الله لانقاذهما .

الاثنين صباحا . رحيل مفاجىء قصد الوصول قبل الساعة الثامنة . في سيارة للمرة الأولى ! هل الفتى في حلم ام في يقظة ؟ الدخول الى الثانوية من قبل حتى ان يرى المبشر ، السيد «لَامْبَارْ». شعر فورولو بالضياع وسط حشد من التلاميذ . لم يعد يعرف نفسه . انه يلبس البدلة

الاوروبية مثل سائر التلاميذ . قبل دخوله ، عقد له عزيز ربطة عنقه بكل احكام، عقد خبير مجرب . لا أحد يهتم به ، انه يسير في ظل عزيز ، ويحمر وجهه خجلا في كل آونة بدون سبب . انه يخشى ان يفتح فاه . صافحه بعض الاولاد ، لأنهم صافحوا صديقه قبله . وسلّم هو ايضا وهو يمر امام اساتذة لامبالين ، دخل الى القسم وأخرج من محفظته كراسا كما اتفق ، وفتحه واخذ يتابع الدرس بصفة آلية ، مقلدا جميع الحركات . من حسن الحظ ان لم يتفطن الى وجوده احد . انه ليس جزعا . ودام العذاب ساعة . احس بالاختناق . حدث نفسه بأنه ليس في المقام الذي يستحق . مهلا ايها الراعي الاسبق ، ألأجلك انت جعلت هذه القاعة الفسيحة ذات الكوى الزجاجية والطاولات الجديدة اللماعة ، وكل هذه النظافة التي قد يخشى الواحد أن يلوثها حتى من بعيد . او لمثله ايضا هذه المرأة الجميلة التي تتكلم وتفسر وتسأل في ادب وتخاطب كل تلميذ بصيغة « انتم » (26) ؟ وهل له أخيرا سيماء رفيق لجميع هؤلاء الاولاد ذوي الهندام اللائق والتربية الحسنة، والذين تبدو عليهم مخايل الذكاء الحاد ؟ بدا له أنه دخيل في هذا المجتمع الجديد الذي يبهره . كان عزيز جالسا غير بعيد منه ، يلتفت اليه بين الفينة والفينة يشجعه بابتسامة . كان قلبه يطفح من الامتنان . في فترة الاستراحة بدأ يطمئن . فالتلاميذ عادة رفقاء في اليوم الاول . ولئن لم ينتبه تلاميذ الصفوف اليه حتى مجرد الانتباه ، فان رفاقه الجدد ، بعكس ذلك — أو على الاقل بعضهم — يتكلفون بعض الظَّرْف حتى يستجلبوا انتباهه : فهذا يقص عليه الملح والنوادر ، وذاك يفسر في

---

26) تدل صيغة المخاطب الجمع في الفرنسية على الاحترام . وشبيه بذلك في العربية الكنية . (المعرّب)

حماسة مسألة حسابية فهمها الجميع مثله تماما ، وثالث ينشد « لعنات كميل » (27) في لهجة ساخرة . كان منراد مستعدا لأن يبدي اعجابه بكل الذين يرغبون في ذلك ، انه معجب بالجميع . انه ليرى نفسه خاملا وجديرا بالشفقة والرثاء، مسحوقا.

وعلى الساعة الحادية عشرة ، افطر رفقة صديقه في مطعم حقير ؛ حساء وطبق بطاطا مع قليل من اللحم ومن الخضار . انها لمأدبة ! لكنه كان يتذوق كل شيء بطرف اسنانه لم يكن جائعا . فمعدته منقبضة .

على الساعة الرابعة ، ذهب لزيارة السيد «م. لامبار»

السيد لامبار رجل مدهش ان قامته الفارعة المقوسة تقويسا خفيفا ، ومشيته المتصلبة بعض التصلب حتى لكأنها مشية ضابط ، ولحيته الطويلة التي تحلي وجهه المليح، توحي بضرب من الاحترام مَشُوب ببعض المهابة. وله ايضا صوت جهوري قوي متزن . لكن ما ان ينظر اليك عن كثب بعينيه المليئتين صراحة ورقة وسذاجة حتى يتحول الاحترام الى ثقة مطلقة. فهو يستولي على مجامع قلبك ببساطته ويستمح لنفسه بارشادك في ثقة المحق القدير ، وتسلم مقاليد امرك اليه في ابتهاج وحبور . ان كل تلميذ في الثانوية ليحس بثقل مسؤولياته . فهو عندما يراجع نفسه قليلا ، يحدثها ان اهله يضحون بانفسهم اذ يدفعون له نفقات الدراسة . والنجاح ليس رهين احد غير الاطفال . واذن فواجب هؤلاء واضح لا لبس فيه . أما بالنسبة الى « اللمبرتيين » فليس الامر كذلك . فالمبشر يحتمل تلك المسؤولية

---

27) هي دعوات كان يتوجه بها اليونان والرومان لآلهة الجحيم ، للنيل من اعدائهم وهي مطّردة في المسرح التراجيدي ومنه مسرحية « هوراس » لراسين وفيها لعنات كميل بالذات (المعرب) .

مقامهم بكل اطمئنان . ولا يبقى لنزلائه بعد ذلك الا هدف واحد هو ارضاؤه . وعندما يكون راضيا فمن العسير على اي كان من الاولياء ان لا يكون كذلك . فهو تارة معلّم صارم وتارة اخرى اب يقظ لطيف، واخرى رفيق لجميع المنبتّين الذي يسكنون عنده يشاركهم العابهم . ولذلك فقد ترك لدى فورولو انطباعا حسنا .

ــ أأنت منراد ؟

ــ أجل يا سيدي .

ــ لا ! بل قل أجل ايها القائد .

ــ أجل أيها القائد .

ــ حدثني عنك عزير . ستسكن واياه نفس الغرفة . انها جاهزة . ستتطبع بسرعة بعادات المنزل . هنا ينبغي ان يكون الواحد حسن السلوك ارجو انك لست من المدخنين ؟.

ــ كلا ايها القائد .

ــ حدّثني قليلا عن اسرتك !

تحدث منراد عن ذويه وعن مواردهم بما يكفي من الدقة وفهم المبشر فورا انه ازاء طفل مسكين . مسكين آخر ينضاف الى الآخرين .

ــ لك منحتك ، هذا هو المهم ، لكن اذا اردت ان تحافظ عليها ، فعليك بأن تكدّ وتجدّ . كل رفقائك جادون في عملهم . ستقفو أثرهم . ثم ستصبح كشافا .

واجاب منراد ، كما اتفق : اجل ايها القائد .

ــ سنفسر لك ذلك وستعلم عما قريب ما معناه .

وغادر منراد ذلك الرجل الطيّب مرتاحا كل الارتياح ، وهو شاعر بانه قد اندمج نهائيا في صلب الاسرة الكبرى ، اسرة « اللمبرتيين » . أي

سلوى بالنسبة اليه ! وفي خلال نفس تلك الامسية سنحت له الفرصة بأن يحتك بعديد من أولئك الكشافة الافذاذ . وقد بدوا له على نحو خاص من الذين يسارعون إلى البر والمعروف .

هكذا انتهى يومه الاول ، وقد استعاده قبل ان ينام بتمامه وكماله . كان سعيدا بحمد الله . ولئن لم يفكر طويلا في اخيه الصغير وفي أختيه وابويه ، فانه قد تذكر رفيق صباه عقلي ذاك الذي ظل راعيا في الجبل . بينما هو منراد ...

# 6

يقع مقرّ المبشر لامبار ، في موضع يشرف على المدينة ويفصله عن المعهد عرض طريق من الطرق . وهو يحتل قطعة من الارض مربعة تمسح حوالي ستين مترا . في زاوية من الزوايا يوجد مسكن الاسرة . وبجانبه قاعة العبادة . هي قاعة كبيرة عاطلة من كل زينة ، فيها بعض الكراسي ، وسبّورة سوداء ، وأرغن من نوع الهرمونيوم . وتحتل غرف التلاميذ جانبا باكمله من المربع : ستة في الطابق الارضي ، وستة في الطابق الاول ، وثمة فناء مغلق ، وحديقة حسنة الصيانة . وحوض ظليل ودكّتان وعريشان في هذا المقر المضياف ، امضى منراد وصديقه عزيز اربع سنوات . وثمة تذّوقا معا غير ما مرّة لذة لا تشوبها شائبة هي ثمرة مثابرتهما ، وهناك توطدت بينهما صداقة من ذلك النوع الذي لا تأتي عليه حوادث الزمان لأنه ليس لها من غرض سوى التقدير المتبادل والتفاهم المتبادل .

ولم يلبث منراد ان فقد ذلك الشعور بالنقص الذي كان يجرده من جميع امكانياته . ولما تفطن الى ان رفقاءه ليسوا « فلتة من فلتات الدهر »

انهمك في العمل مصمما حتى يفوز برتبة مشرفة . ولم يلبث أن اصبح مثل صديقه ، في عداد « المحاريث » (28) . ولم يكن هذا ولا ذاك يعتبر النعت سبة . وسرعان ما شاع ذلك وتركوهم وشأنهم .

كانا كل يوم احد يذهبان الى الغابة تحت اشراف القائد ليلقنوا مباهج الحياة الكشفية . كان منراد مدهوشا من ان اشخاصا من ذوي الجد مثل المبشر «لامبار» يضيعون اوقاتهم في هذه الامور الصبيانية . فرعاة بلده ايضا كانوا يمارسون الكشافة دون علم منهم ؟. اما النظرية والاخلاق ، ومختلف بنود « قانون الكشاف » فلا غبار عليها . لكن حماس الشابين الجبليين فتر كثيرا عندما لاحظا أن الكشاف قد يكون رغم كل شيء منافقا حسودا وكذابا . لكن القائد والحق يقال كان كشافا بأنبل ما في الكلمة من معنى . ولم يلبث عزير ومنراد ان كابدا مشقة النزهات كل يوم احد كأنها السخرة . ولم يرهما احد قط ينشدان درجة ، مهما تكن تلك الدرجة ، لم يكونا يهتمان بغير عملهما في القسم . وتفطن القائد الى ذلك . ولما كانت سيرتهما مرضية لم يكن له ان يطلب منهما أكثر من ذلك .

وتبنيا نفس الموقف خلال الاجتماعات المسائية في قاعة العبادة . كانا يذهبان اليها بانتظام فيقرآن آية من آيات الكتاب المقدس مثل سائر التلاميذ ويرتلان الاناشيد الدينية في اهتمام ، وينصتان الى شرح «القائد» في كثير من الاحترام ثم يرجعان الى غرفتهما ويعودان دونما تردد الى ماكانا فيه من عمل . لم يرهما احد قط يسألان توضيحا ما بشأن آية من الآيات او يذهبان الى الصالون يستفسران هذه النقطة او تلك من امور الدين او يطلبان من القس ان يصلي من اجلهما . وكان المبشر كثيرا ما يتقبل بكل

28) من لغة التلاميذ والطلبة ـــ بتونس تستعمل لمن يجتهدون كثيرا .

سرور ، زيارات من هذا القبيل تكون صادقة ان قليلا او كثيرا . اما هذان الولدان ، فكان يشعر شعور الواثق ان زمامهما ليس بيده . كانت ارادتاهما المتحدتان اتحادا ، لا تشكلان سوى ارادة واحدة يصعب تذليلها . ولم يكن ثمة من وسيلة للفصل بينهما . ومع ذلك ، فلم يكونا يتصنعان اي خبث . لم يكن لهما اي نفور من الديانة البروتستانتية ، بل على العكس ، وعلى مرّ الايام ، اخذا يحبانها لبساطتها وسماحتها، وبلغا الغاية من معرفة التوراة والانجيل . وكان يلذ لهما ان يرتلا وإن بمفردهما ما حفظاه من الاناشيد تمجيدا ليسوع المسيح . واحيانا كانا يصليان في سرهما كما رأيا الاخرين يصلون .

لكن ، كانت دراستهما هي وحدها المهمّة في نظرهما . ولئن سكنا عند المبشّر ، فانما فعلا ذلك حتى يتمكنا من العمل على نحو افضل . كانت رغبتهما في النجاح رغبة عاتية . وكان حزمهما ثابتا لا يزعزعه شيء . وهكذا قضّيا عن طيب خاطر اربع سنوات (من السابعة عشرة الى التاسعة عشرة)، هي سنوات مراهقتهما ، وهي التي يتوقف عليها ، بالنسبة الى كل رجل ، صحته وسعادته مستقبلا. وأثناء النهار، كان العمل بالقسم. وفي المساء، بعد التعبد ، كانا يعملان على نور مصباح كهربائي حتى العاشرة ثم يوقدان شمعة ولا ينامان البتة قبل منتصف الليل او الواحدة صباحا . واحيانا ، كان مؤذن القرية القبايلية يباغتهما امام كتابهما وهو يرفع صوته بالاذان مناديا لصلاة الفجر .

أوّاه من أيام الشتاء الطويلة ! سيذكرانها دوما . المنزل غارق في الصمت . اما خارجه فالريح تنفخ والمطر يطقطق على السقف . كل شيء نائم الّا غرفتهما وقد انبعثت من بين مصراعيها بصيص من النور ضئيل . انها الشمعة تحترق . انهما جالسان ملتفين في برنسيهما ، أمام الكراسات

المفتوحة والواحد مقابل للاخر . لا يكلم احدهما الاخر . انهما يدرسان . ويغالبان النعاس . لقد تعب دماغاهما المسكينان . انهما يغبطان رفاقهما الذين ناموا بعدُ نوما هادئا لكنهما يعاندان . خلال اربع سنوات بأكملها ، ولم يذهبا قط الى قاعة الدرس من دون ان يكونا واثقين من نفسيهما ، ومن دون ان يكونا راجعا جميع دورسهما مراجعة عميقة جادة . وفيما بعد عندما سيكون منراد في مدرسة ترشيح المعلمين ولن يكون قادرا على بذل نفس المجهود، سيتبين انه قد جازف بافناء صحته .

وعلاوة على هذا المجهود الذي كانا يقسران عليه نفسيهما ، كانا يقتران اكثر ما يستطيعان . عبثا كانت كتب العلوم الطبيعية تحدثهما عن الحريرات وعن حصّة الغذاء الضرورية لتعهد الجسم ونموه ، لم يكونا يؤمنان بشيء من ذلك . لقد اشتريا سخّانا وكانا يعدّان طعامهما بنفسيهما في غرفتهما . البطاطا . دائما بطاطا ! كان اعدادها سهلا ، واكلها لذيذا . وكانت توحي الى منراد على وجه الخصوص بذكريات عذبة . ولكن بعد سنتين من هذا النظام الغذائي ، فسد ما بينهما . اما عزيز فجرّب ان تحدّثه،ان صادف ان تعرفت عليه يوما، عن البطاطا !. وأحيانا كانا يخرجان عن السعادة والمألوف فيتناولان على عجل حوالي الحادية عشرة ، طعاما غير مطبوخ ، يتكون من نصف خبزة يتقاسمانها وحكة من معجون الثمار بعشرة سنتيمات لا غير ومن المائة وثمانين فرنكا التي كانا يحصلان عليهما كل شهر كان كلّ ينفق ثمانين ويعطي سائرها الى ابويه .

على أن رمضان ومهند أب عزيز كانا من حين لآخر يذهبان لزيارتهما وقضاء الليلة معهما . كانا مبتهجين لأن لهما طفلين مقتصدين الى هذا الحد ، وكانا يحثانهما على المثابرة ، كان أب رمضان سعيدا جدا . كان جميع الناس في القرية ، يثنون على فوررولو ولم تكن الدراسة تكلفه شيئا .

على انه من الصحيح كذلك ان نقول انه كان يشعر بأمسّ الحاجة الى مساعدة ابنه . وسرعان ما اضطر رمضان الى التخلي عن الثورين وقصر اهتمامه على شجرات التين والزيتون . وعندما كان الطالب يعود الى اهله خلال العطلة الصيفية ، كان ابوه يعتقد ان من واجبه اعالته لا كالرعاة : فكان لابد من قدح من القهوة صباحا ، وقليل من اللحم من حين إلى آخر ، ومن الدقيق للكسكسي ' . واخذت الاسرة تتعود هذا الترف ، وذهبت مدخراتها هباء . وعندما تقدم الفتى الشاب للحصول على الاعدادية اضطروا الى الاقتراض كي يشتروا له كسوة ويدفعوا نفقات اقامته بمدينة الجزائر . وتردد رمضان طويلا قبل ان يتوجه الى احد المرابين . ولكن عندما قضي الامر اعترف في سهولة ، بما لمثل هذه الصفقة التي تخرج صاحبها من ضيقه ، من فوائد . وانتهى به الامر الى انْ استمرأ هذه القروض الطويلة الامد . فأخذ يقترض متى دعت الحاجة والضرورة . لقد ملّ الصراع . واصبح الدهر يوما بعد يوم اشد صعوبة . فكان يحط عن كاهله ثقل العائلة ويضعه على اكثر المرابين تشددا ، ذاك الذي سيضع الوزر — عندما يحين دوره ، وفي الوقت الذي يختاره — وقد اصبح بفضله ثقيلا ، على كتفي فورولو الغضّتين .

# 7

كان فوررولو ، لشدة انهماكه في دروسه ، يجهل المأساة التي تتخبط فيها اسرته . كان يدرك وهو في السادسة عشرة من عمره انه يراهن بمستقبله على نظريات هندسة ومعادلات جبرية ، في حين كان رفاقه يهتمون خاصة بزينتهم ويفكرون في الفتيات .

كان فوررولو مفرط الحساسية ، حقودا . كان يحقد على جميع ابناء قريته الذي يأبون اخذه مأخذ الجد ويسخرون من سذاجة آل منراد . ففي بداية سنته الثانية بالاعدادية بعد ان قضى سنة أولى ممتازة كاد يسيّب كل شيء . لم تكن المنحة قد جدّدت ولا علم لهم بالسبب . إنتظر المدير شهرا وشهرا آخر . ولما انتهى شهر ديسمبر ولم يرد عليه شيء اخطر بذلك الممنوحين فاضطروا الى العودة الى قراهم في حزن وغمّ . كان بيت آل منراد في كرب . لم يعد الامر متعلقا بالبحث عن مزيد من المال كي يواصل البقاء في المدرسة. لم تخامر هذه الفكرة احدا. كانوا يعلمون جميعا أن فوررولو سيبقى دون شك وانه سيرجع عودا على بدء راعيا كما كان . انهم قد

تعجلوا فتح أبواب الامل في وجهه دون رويّة . وان عليه الآن ان يخفف من غلوائه . فعلى اثر انتهاء العطلة الدراسية وحلول السنة الجديدة ، سيندهشون في القرية أولا ، ثم يأتي دور التهكم والسخرية كالمعتاد . وعندما عنّت هذه الفكرة ببال فوررولو بكى خفية ، وحدث نفسه بانه قد لحقه العار . وانه لن يستطيع أن يبدو امام الناس ، ومع ذلك لم يطرد لعجز او لسوء سلوك . عاد الى اهله لأن المال قد نضب . ووعد المدير ان يكتب الى اكاديمية الجزائر قائلا ان ذلك لا بد من باب السهو أو النسيان او الخطإ . ما كان من الممكن ابطال جميع منح معهد من المعاهد دفعة واحدة !. لكن كيف السبيل الى ان يفهم الساخرون ذلك ؟

بعد حفل عيد الميلاد ، امضى فوررولو بتيزي اسبوعا شنيعا كان الذين يلاقونه يبادرون فيعبرون له عن ضرب من الشفقة الجارحة نغصت عليه امره . وإن هو حاول ان يفسر لهم ان منحته ستعود اليه قريبا ، وأنه لم يبق في القرية الا بسبب ذلك الانتظار هزوا رؤوسهم ونصحوه بان لا يعود الى التفكير في ذلك . وقد كان يبلغ به الغيظ مبلغا فتترقرق عيناه بالدموع . آنذاك كانوا يضحكون عليه ويشتمونه .

ـــ ايه يا ابن رمضان ، لقد لفظوك اذن ! بقي لك الماعز مثلنا جميعا .

ـــ كلا ، سأعود الى المدرسة .

ـــ بفضل مال المرابي ، ربّما ؟

ـــ وما شأنك بذلك ؟

ـــ انت غبي . فانت بدل ان تساعد اباك، تجره الى الافلاس.

على ان اباه نفسه بدأ وكأن ثقته اخذت تتزعزع وندم على ان سلك بابنه طريقا هي من العسر بمكان ، عندما يكون المرء فقيرا .

لقد امتحن فوررولو اثناء ذلك الاسبوع محنة قاسية . كانت أحكام

بعضهم الغبية باعثة له على الاشمئزاز ، وكان حسد بعضهم باعثا له على الثورة . وكان القدر جائرا وكان الناس جائرين . كل شيء كان مناوئا له ولكنه فهم من مرّ الايام أن مناوأة الناس له وشماتتهم به وحقدهم عليه مأتاها أنهم اخذوه مأخذ الجد . لقد ظنوا انه قادر على النجاح ، وعلى ان ينهض بآل منراد . أما الآن ...

وعندما وصلت الرسالة الحاملة للنبأ السعيد ، في نهاية الامر ، عاد الى تيزي ـــ وزو، وقلبه مفعم بالغبطة والسرور ، وقد صمم على العمل حتى الانهاك كي ينجح . وقالت امه انها ستحمل قربانا الى القبة ، أما هو فكان يعلم حق العلم ان القربان لن يمكنه التأثير في مجرى حياته . كان يعلم انه سيواجه بمفرده ، معركة تبدو له عنيفة ضارية .

في تلك السن التي كان فيها رفاقه يهيمون بـ « إلفير » (29) كان هو يحفظ قصيدة « النهر » لمجرد ان يحصل على عدد حسن . ولكن لما كان يلقي نصه في لهجة جاسية ، بدل ان يضفي عليه ما ينبغي له من العذوبة والكآبة الصادرتين عن قلب رقيق مرهف ، أنبه الاستاذ فإذا فورولو يجلس في مكانه وقلبه مفعم بالحقد .

لم يكن فورولو يدري تماما كيف ان المثابرة في العمل ستنتشله هو وذويه من البؤس والفاقة ، ولكن احقاقا للحق ، لابد من الاعتراف له بالخصلة التالية : فهو لم يكن يشك في مزايا بذل الجهد ؛ كان الجهد يستحق اجرا وقد حصل على اجره ذاك . فعندما قبل في الاعدادية ، فهم اهله وكذلك ابناء قريته في خاتمة المطاف انه لم يخسر وقته تماما . ولكن المنافذ التي

---

29) « الفير » اسم اطلقه لامرتين على امرأة تعشقها وتغنى بها و « النهر » من قصائده الذائعة الصيت (المعرّب) .

تسمح بها الاعدادية قليلة . وعليه اذن ان يجابه مزيدا من المناظرات . كان فوررولو لا يزال يحلم بالدخول الى مدرسة ترشيح المعلمين.

كان خلال العطلة الصيفية من كل سنة يعود الى ذويه . وكان له آنذاك من الوقت ما ينسيه المدينة . وكانت المدينة تنساه . كان يتحوّل شيئا فشيئا فاذا هو ينساق الى العود الى الرفاق والجماعة والمقهى ، واعمال الحقل ، والقرية باسرها . وفي كل مرة كان عليه في غرة اكتوبر ان يقتلع نفسه من الجبل من جديد وان ينزل الى المدينة نزول الفلاح بين اقران ينكرون اول الامر انه هو بالذات ، وقد اسمرّ لون جلدته وتصلب لما كان نهض به من الاعمال صيفا .

عاد فوررولو اذن الى الثانوية ، حاملا شهادة الاعدادية . كان يذهب اليها للسنة الإخيرة ! كانت شهادته تكسبه بعض الثقة ، رغم ان حال اهله المادية كانت اشد ضنكا من اي وقت مضى ؛ وفي القرية لم يعد احد يعتبره غلاما . كان ابوه يسأله رأيه في كل غرض من الاغراض وكان بعض الناس يأتونه لاستشارته او كي يكتب لهم ما عسر عليهم من الرسائل . كانوا يعظمونه الا ان فوررولو لم يكن يغتر بذلك البتة . كان يود لو نصحوه هو ولو شجعوه وآزروه. كان يشعر انه وحيد . وكانوا يثقون به بينما ودّ لو وثق بأحد ، واتبع نصائحه في ثقة عمياء ، وان لا يكون له من المشاغل سوى برنامجه الدراسي . قال له أبوه قبل رحيله : اذهب يا ولدي . كان الله في عونك . سيدلك على سواء السبيل .

وقبلته امه في حنان وهي تبتسم في زهو ساذج . كان الامر واضحا . لم يعد ابواه يشكان في شيء. كانا واثقين من نجاحه . فابنهما سينجح بطبيعة الحال مرة اخرى وسيكونان من السعداء .

اما هو فكان يعلم حق العلم انه ان اخفق فستغلق في وجهه الى الابد

أبواب مدرسة ترشيح المعلمين لأنه قد بلغ السن القصوى المسموح بها للتقدم الى المناظرة . لابد له ايضا ان يعمل بمفرده في ظروف سيئة. لم يكن يمكن لأهله ان يدركوا انه في حال اخفاقه سيستسمحهم الرحيل الى فرنسا. كانت هذه الفكرة تراوده كامل الصيف . ففي فرنسا سيجد من يشغله عاملا يدويا في احد المصانع . أما في الجزائر ، فلم يكن امامه الا واحد من هذين الخيارين ، اما ان يصبح معلما ومعناه اليسر للعائلة بأسرها ، أو ان يعود راعيا كما كان .

وكلما مرت الايام ، بدت المناظرة عسيرة المنال مخيفة . كان فورولو قد بدأ يشعر ، وهو يعمل ، بوهن عزيمته ؛ كان يرى نفسه في شهر جوان عائدا الى القرية ومعه كتبه التي لا تجدي نفعا وشهادته التي لا تجدي نفعا ، وتستقبله امه باكية ولكن متسامحة كعادتها ويستقبله ابوه خائب الظن بائسا . كان يتخيل احتقار سائر الناس له . واحيانا ايضا ، كان يشعر بالثقة تغمره . كان يجازف بمصير ذويه ، بورقتهم الاخيرة . وقبل اسبوع من اليوم الموعود ، كان على هذه الحال من التفكير . كان ابوه نزل الى المدينة حتى يأتيه بقليل من المال يضمن تسديد نفقات اقامته بمدينة الجزائر . خرجا الى الطريق المعبدة واخذا يتجولان في انتظار مرور الشاحنة التي كان ينبغي ان تعود برمضان . قال لابنه :

ــ انت ذاهب الى الجزائر . ستكونون كُثْرا ، هنالك . لكن لن يختاروا منكم الا نفرا قليلا . إنما الاختيار دوما موكول الى الصدفة . اما نحن ، هنالك ، فوق فسننتظر. ان اخفقت، فعد الى المنزل متأكدا من صادق محبتنا لك . ثم ان معرفتك ، لن ينتزعها منك احد ، اليس كذلك ؟ انها لك . والآن ينبغي ان اصعد الى القرية . ستعلم امك اني تحدثت اليك . سأقول لها انك لست خائفا .

ــ نعم قل لهم ، هنالك ، فوق ، اني لست خائفا .

تمّ طبع هذا الكتاب
بالمطابع الموحّدة
6 نهج عبد الرحمان عزام ـــ تونس 1002
الطبعة الأولى : أكتوبر 1982
الطبعة الثانية : أكتوبر 1985
الطبعة الثالثة : فيفري 1989
الطبعة الرابعة : ديسمبر 1992

## سلسلة عودة النصّ (إدارة محمد كمال قحة)

□ سلسلة أدبية تعنى بنقل آثار كتبها أدباء من المغرب العربيّ مباشرة باللّغة الفرنسية إلى حقل الأدب العربي .

□ سلسلة ترمي إلى تخطي مرحلة الارتجال في ترجمة الآثار الادبية وتسهر على احترام الجوانب الفنيّة والجمالية في الأثر المترجم .

## نجل الفقير

« فورولو منراد » طفل جزائري من اصل قروي تقذف به الصّدف بعيدا عن عادات « تزّي حبال » وتقاليدها الوديعة والحازمة في نفس الوقت . وفضاء الغربة هنا في قلب الأرض الأم ، في مدرسة المستعمر حيث يبدأ فورولو حياة ملؤها الكد والجد وراء ثقافة المستعمر . انتصارات فورولو انتصارات على صيغ التصريف المستعصية ووقائعه مع اعلام الأدب والثقافة . بين المدرسة الابتدائية بـ « تاوريرت موسى » ومدرسة ترشيح المعلمين بالجزائر العاصمة ، تتعاقب وقائع ملحمة وديعة حازمة سيفوز فيها « فورولو » بما يؤهله إلى القيام بخطّة يجلّها أيما إجلال خطّة المعلّم .

## مولود فرعون

ولد بقرية « تزّي حبال » وزاول تعلّمه بـ « تاوريرت موسى » فبمعهد « تزّي وزّو » ثمّ بمدرسة ترشيح المعلّمين بالجزائر العاصمة . واعتمد عدّة خطط تربويّة بين سنتي 1935 و 1962 وفي 15 مارس من نفس السنة اغتالته فرقة تنتمي إلى منظمّة الجيش السرّي الاستعماريّة (O.A.S.) بينما كان مجتمعا بنفر من رفقائه . من أشهر آثاره إلى جانب نجل الفقي Le fils du pauvre الدم والثرى La terre et le sang المسالك الوعـــــــــرة Les chemins qui montent ويومياته (1955 — 1962)



رقم الناشر : 01.0046

ISBN 9973 - 19 - 002 - 5

Le fils du pauvre